محمد المختار الشـنقيطي

جراح الروح

مجموعة شعرية

مع ذكريات أدبية عن:
"أيامي مع الشعر"

وسم
للنشر والتوزيع

جراح الروح

مجموعة شعرية

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد المختار الشنقيطي

جراح الروح

مجموعة شعرية

مع ذكريات أدبية عن:

"أيامي مع الشعر"

وسم
للمعرفة و الثقافة

جـــراح الـــروح

تأليف: محمد المختار الشنقيطي

القياس: 14.5 X 21.5 سم

عدد الصفحات : 136 صفحة

ISBN: 978-605-74686-6-6

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١ م

جَمِيعُ الْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

وسم

للمعرفة و الثقافة

+90 551 163 82 25

wasmbookstore.com

wasm.bookstore@gmail.com

WasmBookstore

Wasm_Bookstore

Fatih, Akşemsettin mahallesi, Halıcılar Cd, No 18, İstanbul

إهداء

إلى روح أبي الذي فتَح قلبي على محاسن اللسان العربي، وألهَمني حُبَّ الشِّعر والبيان..

إلى أفلاذ كبدي وأزهار بستاني الذين جعلوا الكون في عيني أكثر رونقاً وبهجة..

إلى التي بلسمتْ جراحَ روحي، وأعالتَ حياتي ربيعاً مضمَّخاً بالشَّذى وأنداءِ الصباح..

الفهرس

نافذةٌ 12

أيامي مع الشعر 18

- البواكير الشعرية الأولى 21
- هتْك أستار القصيدة 26
- خاوي الوفاض في صنعاء 32
- مع أبي زيدٍ والعلوج 40
- ابن الرومي ودموع أبي 50
- مع الرومانسيين العرب 57
- في صُحبة "بُوشْكِينْ" 61
- "أزهار الشَّر" في تكساس 67

- هنيهة في مسجد قرطبة 76
- مع محمد عاكف أرْصُويْ 85

نصوص الديوان 92

- أغاني الحجاز 92
- دمُوع النَّدَى 95
- جانب الطُّور 97
- رفرفة الفجر 101
- يوسف وإخوته 105
- شَذَى 108
- قصيدة 110
- ظِلال 111
- ذكريات 113

- شكوى 115
- أشواق قدسية 116
- القدس والإعصار 119
- ياسين 122
- حجَري 123
- الشهيد 126
- الصقر الجريح 127
- الليل 128
- الصباح المطِلّ 130
- إسطنبول 132
- صنعاء 133
- سراييفو 134
- فَريدٌ وفَريدةٌ 135

نافذة

بسم الله الرحمن الرحيم

نافذة

"إن الجرح هو النافذة التي يدخل منها النور إليك"
(جلال الدين الرومي)

هذه مجموعة شعرية خفيفة، كتبتُها على مدى ثلاثة عقود، إذ لم يكن قرض الشعر في يوم من الأيام أكبرَ همّي، ولا أجهدتُ نفسي قطُّ في الانضمام إلى نادي الشعراء، رغم ولَعي بالشّعر، ووفرة ما أحفظ منه. وقد أدركتُ من مطالعاتي المبكّرة في النقد الأدبي أن الشعر دفقاتٌ من الوجدان، لا يحتملُ التكلُّفَ، ولا يخضع لقوانين العرض والطلب. فكان الزمن الشعري في حياتي لحظاتٍ قصيرةً، تطوفني من حين لآخر في شكل ومضات عابرة. وقد يغيبُ ذلك الطيف الزائر سنينَ عَدَداً، دون أن أستعجلَ رجوعه، أو أستنزلَ عطْفه. وهذا الديوان الصغير هو حصاد تلك الومضات الشعرية الخاطفة، المتقطعة الانسياب.

ولن أقدم تقويما نقديا لهذا الديوان، ولا رأيا في قيمته الأدبية، إذ الشاعر ليس خيرَ من يتحدث عن شعره، فضلاً عن أن رأيي في قصائد الديوان ليس رأيا واحدًا، إذ تعجبني بعض مقاطعه وتطربني، وأستغرب –وأنا كاتبها– من أين جاءت أحاسيسُها المرهَفة، وتعابيرها الرشيقة، بينما أجد في مقاطعَ منه برودةً في الشعور، وضعفاً في الصياغة، لا يناسبان ذائقتي الأدبية، ولا يستجيبان لحاسَّتي النقدية. بل إني لأجد في القصيدة الواحدة منه موجاتٍ تطول وتقْصُر، ومواطنَ تجمُل وتذبُل.

وسأكتفي في هذه النافذة بالقول إن النصوص التي تشكِّل قوام هذا الديوان الصغير تتسم بالوحدة العضوية، وتتداخلُ في لغتها وروحها، في قلبها وقالَبها، تداخُلاً كثيفاً، ولا أحسب أن هذا سيغيب عن عين القارئ النبيه. وتنقسم هذه النصوص الشعرية إلى خمسة أصناف: نصوص حجازية سينائية هي "أغاني الحجاز" و"دموع الندى" و"جانب الطور" و"رفرفة الفجر" و"يوسف وإخوته"، ونصوص وجدانية غرامية

هي "شذى" و"قصيدة" و"ظلال" و"ذكريات" و"شكوى"، ونصوص مقدسية فلسطينية هي "أشواق قدسية" و"القدس والإعصار" و"ياسين" و"حجَري"، ونصوص ثورية متحفزة هي "الشهيد" و"الصقر الجريح" و"الليل" و"الصباح المطلّ"، ونصوص عن مدن أو بلدان هي "اسطنبول" و"صنعاء" و"سارايفو". وقد رتبتُ الديوان على هذه الأصناف الخمسة، فجمعتُ كل صنف معاً إبقاءً على روحه المشتركة رغم تباين زمن الكتابة ثم ختمتُ الديوان بقصيدة «فريد وفريدة»، وهي متفردة في بابها في الديوان، لأنها تهنئة لصديق عزيز بزفافه..

كما مهدتُ للديوان بمدخل ضافٍ سميته "أيامي مع الشعر"، اعترافا بأن الزمن الشعري في حياتي كان قصيرا للغاية. وقد تضمَّن المدخل حديثا عن روافدَ غذَّت ذاتي الأدبية، وأوابدَ من الطرائف الأدبية التي عشتُها. لقد كان يستهويني دائما أن يتحدث الشاعر والكاتب بضمير المتكلم، فيتيح لي الولوجَ إلى عوالم نفسه، وفَهْمِ حياته الباطنية، فأردت أن أنحوَ هذا النحو

مع قرّائي الأكارم. وللقارئ الكريم أن يعتبر "أيامي مع الشعر" سيرة ذاتية أدبية من كاتب شغلته السياسة والفكر عن الأدب والشعر، أو كشفاً عن المخاض التكويني لنصوص هذا الديوان، أو مجردَ إمتاع ومؤانسة، وتستُّرٍ على ندرة الشعر بوفرة النثر. فقد طال هذا المدخل كثيرا، حتى طغى على الديوان ذاته، وفي عالم الشعر والأدب متَّسَع.

أما بعدُ.. فهذه جراحُ روحي بين يديك، عسى أن تجد فيها مرآةً لروحك، أو نافذةً على شغاف قلبك. فعجائبُ القلب لا تنقضي، وجراح الروح نوافذُ للنور، كما قال الشاعر العظيم جلال الدين الرومي: "إن الجرح هو النافذة التي يدخل منها النور إليك."

محمد المختار الشنقيطي
طرابزون، تركيا
٠٧ ذو الحجة ١٤٤٢هـ
١٨ يوليو ٢٠٢١م

أيامي مع الشعر

أيامي مع الشعر

"يا كتابي! كم سنةً عشتَ في نفسي!"
(رسول حمزاتوف)

كتب الأديب الداغستاني رسول حمزاتوف (١٩٢٣–٢٠٠٣) في صدر روايته البديعة، داغستان بلدي، يقول: "يا كتابي! كم سنةً عشتَ في نفسي!"[١] وهي جملة تعبّر عن طول اختمار النص الأدبي في قلب الشاعر، وعن راحة باله حين يتحرَّر من عبئه، ويرمي به إلى الناس. وقد قدّم لنا أديب العربية عمرو بن بحر الجاحظ (١٦٣–٢٥٥هـ/ ٧٨٠–٨٦٩م) تصنيفا ضِمْنيًّا لأنماط الشعراء، وذلك في ثنايا حكاية حكاها تقول إن الشاعر "مالك بن الأخطل قد بعثه أبوه يسمع شعر جرير والفرزدق، فسأله أبوه عنهما، فقال: جريرٌ يغرف من بحر، والفرزدق ينحتُ من صخر."[٢]

١- رسول حمزاتوف، داغستان بلدي، ترجمة: عبد المعين الملوحي ويوسف حلاق (دمشق: دار نينوى، ١٩١٥)، ١٢.

٢- عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٨)، ٢ /١١٧.

وقد يميل البعض إلى ترجيح الشاعر الذي يغرف من بحر، لما توحي به هذه الصفة من سَعَة العطَن، وقُرْب المأخذ، وفيْض القريحة، وذلك كان ترجيحَ والدِ مالك بن الأخطل بعد أن وصف له نجله ذينك الشاعرين العظيمين. وقد يرجّح آخرون الشاعر الذي ينحت من صخر، لما توحي به هذه الصفة من طول النفَس، وتعتيق النص، وبراعة الصنعة، وهذا ترجيحُ عدد من النقاد الأقدمين والمعاصرين. ولا أستطيع تصنيف نفسي ضمن أيٍّ من الصنفين، فلستُ أنتمي بداهةً إلى الشعراء الذين يغرفون من بحر، أما الذين ينحتون من صخر فلا أستطيع الادّعاء أن شعري يرقى إلى شعرهم، وإن جمعتْ بيني وبينهم قلة الشعر وندرة كتابته.

ومهما يغرِف الشاعر من بحر، أو ينحتْ من صخر، فإن خير الشعر ما جاء فيضاً من الخاطر، ودفْقاً من الوجدان،

دون تكلُّف ولا تعسُّفٍ. فليس الشعر صنعة منطقية بمقدمات ونتائج، ولا تفكيرا علميا بمنهجيات باردة، بل هو فيضٌ شعوري من أعماق النفوس. كما أن التعبير عنه يحْسُن أن يكون بلغة الإيماء والإيحاء، لا بالأسلوب التقريري البارد، وقديما قيل: "إن لغة الشعر لا تصْلُح لدار القضاء." ونظرا لهذه الطبيعة الوجدانية والإيحائية، فإن الشاعر قد لا ينتبه أحيانا إلى المعاني الخفية والدلالات المكنونة في شعره، حتى ينبّهَه عليها القراء النابهون. وقد حدَث معي شيء من ذلك أكثرَ من مرة، ومن أمثلته أني لما كتبتُ قصيدتي "دموع الندى" قرأتُها على صديقي الطبيب الأديب اليمني الأميركي، الدكتور زهير شهاب، وهو من خيرة النبلاء، ونوادر الأذكياء. وحينما وصلتُ إلى هذين البيتين:

سندفُن آلامَنا في الحَشَا ونكْتُمُ آهاتِنا في الصدورْ
ونعْبُر للنور ملءَ الخُطَى ونبذُلُ أرواحَنا في العبورْ

سألني الدكتور زهير ضاحكا: "هل تقصد العبور في حرب رمضان ١٩٧٣"؟ فقلت: "لا والله ما قصدتُ ذلك العبور في ذاته، ولا خطر في بالي حين كتبتُ القصيدة، لكن يبدو أن عبور رمضان ١٩٧٣ تسرَّب إلى عقلي الباطن دون تفكير مني".

البواكير الشعرية الأولى

لقد بدأتُ قرض الشعر وأنا شاب يافع لا يتجاوز عمري الخمسة عشر عاما تقريبا. لكن جلَّ ما كتبته آنذاك -رغم أنه محكم النَّسْج من حيث الوزن والإيقاع- كان شعرا تقليديا خشِناً، يسود فيه تقليد الأقدمين تصويراً وتعبيراً. لذلك لم أعبأ به، ولم أضمّنه هذا الديوان، بل أهملتُه نسياناً أو تناسياً، لعدم اقتناعي بقيمتَه الأدبية. ومن قصائد تلك المرحلة المبكرة من حياتي قصيدةُ نسيبٍ رجَزية كتبتُها شوقا إلى قريتي الوادعة (الجريف)،

وبدايتها:

حيِّ منازلَ "الجُرَيفِ" وانْـــــزلِ   به فنعم أهــــلُ ذاك المنـزلِ
وبـ"الهُضَيبات الثلاث الصُّفْرِ" قِفْ   و"مَشْعَبِ الجُنْد" و"قلْبِ الجمَلِ"

والقصيدة مكتوبة على النهج القديم الذي يعدد فيه الشاعر العربي منازل الأحبة، ويقف على أطلالهم ومَواطن نجوعهم. ومن الـمَواطن المذكورة هنا "قلب الجمل"[1] وهو هضبة زرقاء جميلة تبعد عن قريتنا نحو العشرة كيلومترات، و"مَشْعب الجُند"[2] وهو مَضيق في حضن "قلب الجمل"، وقد سُمِّي بهذا الاسم لأن أحد القادة المقاومين للاستعمار الفرنسي من منطقتنا، هو المرحوم الشيخ

١ - نطْقه باللهجة الحسَّانية -وهي اللهجة العربية السائدة في موريتانيا ومنطقة الصحراء الكبرى- هو «گلْبْ الجّـملْ»، إذ يسمي الموريتانيون الهضبة المتوسطة الحجم «قلب»، وينطقونها بالكاف السبئية (گ).

٢ - اسمه بالحسانية «شلخة الصّْنَادْرَه»، والكلمة الأولى عربية الأصل، يقال شلخَه بالسيف أي قطَّعه، والثانية يبدو أنها تعريب لكلمة «الجنود» soldats الفرنسية. و«الـمَشعب» في العربية الطريق، خصوصا إذا كان منشعبا عن غيره. قال الكميت:

ومالِيَ إلا آلَ أحمدَ شيعةٌ   ومالِيَ إلا مَشْعبَ الحقّ مشعبُ

ولد عبدك (ت ١٩٥٨) أخذَ فيه جمعًا من الجنود الفرنسيين على حين غِرَّة، وقتل منهم مَقتلة لا تزال ذكراها حية في أذهان أهل قريتنا رغم مُضيّ أكثر من قرن عليها . وقد أخبرني خالي محمد رحمه الله بتفاصيل هذه الوقعة نقلاً عن قائدها البطل الشيخ ولد عبدكَ الذي حدَّثه عن تفاصيلها وجها لوجه، ووصف له مطاردته لجنود الاحتلال الفرنسي في شِعاب الجبل الأشمّ الذي يفصل قريتنا عن مدينة "النعمة"، حيث كان المركز الإداري للسلطة الاستعمارية الفرنسية.

وقد أُسِر البطل الشيخ ولد عبدكَ مع أخيه الزوين، وأبيه محمد الذي كان القائد العام للمقاومة في منطقتنا، وحكم عليهم الفرنسيون بالنفي إلى دولة ساحل العاج التي كانت مستعمرة فرنسية آنذاك، حيث توفي الوالد والأخ في المنفى، ورجع الشيخ لموريتانيا بعد إخماد المقاومة العسكرية. وقد تربيتُ وأبناءُ قريتي على الترنم

بالأغاني الشعبية التي تخلّد تلك الوقعة في "مَشْعب الجند" قرب قريتنا، وغيرها من وقائع المقاومة. ومنها أغنية تمجِّد عملية جريئة استطاعت فيها المقاومة قطع خيوط التلغراف الفرنسية، ولا تزال كلمات تلك الأغنية تتردد في ذاكرتي إلى اليوم، وهي تنفذ إلى شغاف القلب بما فيها من عمق وصدق، رغم بساطة كلماتها[1]. وربما يصدق عليها قول الشاعر محمد إقبال في قصيدته عن نهر قرطبة:

وأغنيةُ ابنةِ الفلاَّحِ تُطرب رغْم رِكَّتها
بِرقَّتها إذا غنّتْ وآهتِها وأَنَّتها[2]

وقد اعترف الضابط والمؤرخ الفرنسي بول مارتي (١٨٨٢-١٩٣٨)

---

١ - تقول كلمات الأغنية باللهجة الحسَّانية:

عَنَّكْ يَا السِّلْكْ امْشِ گولْـهَا
عَنَّكْ يَا السِّلْكْ امْشِ گولْـهَا
لِخْوَيْبَ اخْلَاتْ وانْگطَعْ مُولْهَا
وِلاَ بِتْنَـاتْ انْوَلُّـولْـهَا

ومعناها: «اذهبْ أيها الخط [=خط التلغراف] وقلها [للفرنسيين]. فالبرج قد تهدَّم وقُطِع دابره، وإذا أعيد بناؤه فسنُعيد الكرَّة عليه.»

٢- محمد إقبال، ديوان جناح جبريل، ضمن مجموعة دواوينه (دمشق: دار ابن كثير، ٢٠٠٧)، ١ /٤٨١.

بعملية ناجحة ضد خطوط التلغراف الفرنسية بقيادة أسرة آل عبدكَ في شهر أبريل ١٩١٦، وبأن قوات المقاومة "أتلفتْ خط التلغراف على مسافة طويلة نسبيا."[١] فلعلها هي العملية التي تحيل عليها كلمات تلك الأغنية الملحمية الجميلة. كما اعترف مارتي بوفاة الأسيرين محمد ولد عبدك والزوين ولد عبدك في المنفى بسبب المرض والإهمال الطبي. وكان الفارق بين وفاتيْهما عشرة أيام فقط، حيث توفي الوالد يوم ٢ فبراير، والولد يوم ١٢ فبراير من العام ١٩١٨، [٢]رحمة الله عليهما. وإنما استطردتُ في القول إكراما لِروحَي ذينك الشهيدين المنفيين، وأخيهما البطل. فموضوعنا هنا هو الشعر والأدب، ويكفي أن أقول إن تلك الأغاني الشعبية كان لها أثر عميق في ذاتي، فمنها عشقتُ الشعر الملحمي، ومنها اكتسبتُ الأذن الموسيقية التي لا غنىً عنها لكل من يكتب الشعر.

١ - انظر: بول مارتي، القبائل البيضانية في الحوض والساحل الموريتاني وقصة الاحتلال الفرنسي للمنطقة، ترجمة محمد محمود ولد ودادي (بنغازي: جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ٢٠٠١)، ١١٤.

٢- انظر: مارتي، القبائل البيضانية، ١١٥.

هتك أستار القصيدة

أما كيف أكتب القصيدة، فقد سُئل الشاعر نزار قباني هذا السؤال، فتهرَّب من الإجابة، ثم ردَّ بظرافة: "إذا عَلِمت القصيدة أني كشفتُ سرَّها فستسفك دمي"! ولكني -التزاماً بالصدق مع القراء في الحديث عن أيامي مع الشعر دون مواربة- سأخبرهم بالطريقة الغريبة التي أكتب بها شعري، حتى وإن كان في ذلك كشفٌ لسِرّ القصيدة، وهتكٌ لسِترها. فقد كتبتُ بعض قصائدي في ساعة أو ساعتين، وكتبتُ بعضها في يوم أو يومين. لكن بعضها الآخر ولد ميلادا غريبا، فرغم أنها قصيرة جدًّا -شأنها شأن كل نصوصي الشعرية- فقد بدأتُ كتابتها، ثم لم أكملها إلا بعد سنين، قد تصِل عَقدًا من الزمان. وكثيراً ما كتبتُ البيت الأخير من القصيدة قبل أي بيت آخر! وتوجد في أغلب الحالات فجوة زمنية واسعة بين الميلاد الشعوري لقصيدتي وميلادها التعبيري.

والغالب أن تولد الومضة الشعرية في قلبي فأبدأ كتابة النص، ثم لا تسعفني الطاقة الشعورية والتعبيرية على الاستمرار، فأترك النص جانبا إلى أن تعود تلك الومضة في لحظة أخرى -قد تكون بعد عدة أعوام- فأكمل بناء النص.

ففي عام ٢٠٠٤ -مثلا- سافرتُ إلى مدينة سانتا كلارا بولاية كاليفورنيا الأميركية، بدعوة من الجمعية الإسلامية الأميركية MAS لأقدم محاضرات لشباب المسلمين في المدينة، وفي تلك الرحلة كنت أقرأ كتاب الشيخ أبي الحسن الندوي روائع إقبال في ترجمته الإنكليزية *Glory of Iqbal*، فمررتُ بهذه الجملة في وصف الندوي لشخصية المسلم على لسان محمد إقبال:

"Even the whole world cannot pay his price, nor can he be bought by anyone except by his Lord."[1]

1- Syed Abul Hasan Ali Nadwi, Glory of Iqbal, translated from Urdu by Mohammad Asif Kidwani (Lucknow: The Academy of Islamic Research and Publications, 1979), 76.

ومعناها الحرفي: "لا يستطيع العالمُ كلُّه دفْعَ ثمنه، ولا يستطيع أحدٌ شراءَه إلا مولاه". فقلتُ في نفسي: هذا الوصف لا يصْدُق إلا على الشهيد، وطافت بخاطري ومضة شعرية في تلك اللحظة، فصُغتُ ذلك المعنى في شكل بيت شعري يصف الشهيد بأنه:

لا يملكُ الناس في أمثاله ثمناً لكنَّ ربَّ البرايا يملكُ الثَّمنَا

ثم كتبتُ البيت في قصاصة ورق، ووضعتها في جيبي، وانشغلت بغايات رحلتي، ولم يكن منها قرْضُ الشعر في هضاب كاليفورنيا وغاباتها الساحرة. ودارت السنون وذلك البيت اليتيم رابضٌ في تلك القصاصة، بعد أن نسيتُه وأضعتُ مكانه. ثم وجدتُ القصاصة يوما بين أوراقي، فأكملتُ القصيدة، وكان ذلك البيت آخرَ أبياتها، وهي قصيدة "الشهيد" في هذا الديوان.

وفي عام ٢٠١٠ زرت مدينة اسطنبول لأول مرة، وسرعان

ما وقعتُ في حبائل حُبّها، وسحرني جمْعُها بين جمال الطبيعة الآسرة وعبَقِ التاريخ الحضاري الإسلامي. وكان لمساجدها التاريخية العظيمة أثرٌ خاص في نفسي، فبدأتُ كتابة قصيدة عن اسطنبول، لكن قريحتي لم تُسعفني إلا ببيت واحد يصف قباب المساجد في اسطنبول هكذا:

والقبابُ التي كَهَالاتِ بدْرٍ سَابحات على أديم الليالي

وظل هذا البيت مدفونا في ثنايا دفتر صغير لبضع سنين، ثم فاضت القريحة ببقية النص الذي هو الآن قصيدة "اسطنبول" في هذا الديوان، ويحتل ذلك البيت الرقم الخامس ضمن أبياتها.

ونظراً لهذه الفجوة الزمنية بين الميلاد الشعوري للقصيدة واكتمال التعبير عنها، فإن تواريخ قصائد هذا الديوان فيها تجوُّز، والتاريخ الذي أثبته هنا هو تاريخ ميلاد القصيدة شعوريا وبداية

كتابتها، وليس تاريخ اكتمالها نصًّا ناجزاً. وتذكّرني هذه الطريقة في كتابة الشعر بقصة تُروى عن أحد الشعراء الشناقطة الأقدمين هو مولود بن أحمد الجواد، خلاصتها أنه عجَزَ عن إكمال البيت الأول من قصيدة له حَوْلاً كاملاً، حتى حدث ما فجَّر طاقته التعبيرية، فجاء الشطر الثاني من البيت فيضَ الخاطر بكل يسر. وقد أورد العلاَّمة الأديب أحمد بن الأمين الشنقيطي (١٨٧٢-١٩١٣) القصة فقال: "ومن ظريف ما اتَّفق له، أنه أراد قول قصيدة، فنظم الشَّطْر الأول وهو:

أمريعُ الغُصْن ذا أمْ تلكَ أعلامُهْ

فأُرتِجَ عليه سنةً، فورد يوما منهلاً ليسقي جملاً له، فتخاصمت جاريتان في المنهل، فقالت إحداهما للأخرى: والله ما ذلك كذلك، ولا كانت أيامه كما تقولين، أو ما هو قريب من هذا. فضرب جمَله من غير أن يسقيَه، ودخل الحيَّ وهو يجري به،

فظن الناس أنه رأى ما يُذعره، فسألوه، فأخبرهم بأنه وجَدَ شطرًا يُتم به مطلعَ قصيدته فقال:

أَمَربعُ الغُصْن ذا أَمْ تلك أعلامهْ؟ لا هُوَ هُوَ ولا الأيام أَيَّامُـــهْ."[1]

وقد اشتهر الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سُلمى بأنه كان يقضي عاما كاملا في تشذيب القصيدة الواحدة وتهذيبها قبل أن يخرجها للناس، وأشار إلى ذلك الشاعر الشنقيطي سيدي محمد بن الشيخ سيديا (١٨٣٢-١٨٦٩)، وجعل منه حُجَّة على أن الشعر صعبُ المِراس:

والحوْلُ يمكثه زهيرٌ حُجَّةٌ أن القوافيَ لَسْنَ طوْعَ الإمَّعِي[2]

وحالة زهير الموصوفة هنا أقربُ إلى الإيغال المتعمَّد في تجويد

١- أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط (القاهرة: الشركة الدولية للطباعة، ٢٠٠٢)، ١٩٣.

٢ - الشنقيطي، الوسيط، ٢٧١.

الصنعة الأدبية، وليس الانتظار العفْوي لفيض الخاطر الشعري، على نحو ما رأينا في قصة مولود بن أحمد الجواد. ولعل الصيغة المعاصرة لما كان يفعله زهير هي تقنية "التشذيب"، وهي حكمة تعلمتُها من الشاعر الفلسطيني جبرا إبراهيم جبرا (١٩٢٠-١٩٩٤)، فقد أخذتُ عنه درسا أدبيا مهما، فكنتُ إذا كتبت قصيدة شذَّبتها تشذيبا، بحذف كل ما يمكن حذفه منها، حتى لا يبقى إلا جوهرُها الذي لا قوام لها بدونه، وقد أحذف جُلَّ أبياتها، فلا أستبقي منها سوى النزر القليل. ولعل هذا مما يفسِّر قِصَر نصوصي الشعرية.

خاوي الوفاض في صنعاء

اعتاد الناس في بلاد شنقيط (موريتانيا) بناءَ رصيدهم اللغوي والأدبي في المدارس الأهلية المعروفة باسم "المحاظر" من خلال

حفظ القرآن الكريم، ثم حفْظ أحد النصوص الأدبية التأسيسية. ومن النصوص التي اعتادوا حفظها: "المعلَّقات العشر"، و"ديوان المتنبي"، و"ديوان غيلان"، و"مقامات الحريري". وكان من فضل الله عليَّ أني حفظت القرآن الكريم في عمر الحادية عشرة تقريبا، بحرص والديَّ -المختار وفاطمة- وهمَّتهما، وعمق إيمانهما، رحمهما الله تعالى. ثم كان من حسْن حظي أن والدِي كان محبا لمقامات الحريري، محتفظا بنسخة منها في مكتبته الشخصية، بشرح الأديب الأندلسي أحمد بن عبد المؤمن الشَّريشي (٥٥٧-٦١٩هـ/ ١١٨١-١٢٢٣م). وكان شرح المقامات للشَّريشي، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، وإحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، ونظم الغزوات النبوية لأحمد البدَوي الشنقيطي، من أحبّ كتب الوالد إليه، ومنه اكتسبتُ محبة الكتب الأربعة في عمر مبكر. وقد شجعني الوالد على قراءة مقامات الحريري وحفظها، فحفظتُ العديد منها وأنا فتى يافع

فيما بين العاشرة والثانية عشرة من عمري تقريبا، ولا أزال أذكر متعة تلك الجلسات بين يديه، وأنا أقرأ إحدى المقامات، وهو يشرح لي معانيها، ويفكُّ مغاليقها، وسطَ الضحكات من مغامرات أبي زيد السَّروجي، بطل المقامات الخيالي.

ومقامات الحريري من تأليف أحد عمالقة الأدب العراقيين، هو أبو محمد قاسم بن علي الحريري البصري (٤٤٦-٥١٦ هـ/ ١٠٥٤-١١٢٢م)، وهي من عجائب النصوص الأدبية العربية التي تكاد تَجْمع من الألفاظ العربية أجمَلها وأحسَنها رونقاً. ولعله من النادر أن نجد نصا -بعد القرآن الكريم والحديث النبوي- قد جمعَ من دُرر الألفاظ العربية مثلما جمعتْ مقامات الحريري. وتكفي في قيمة هذه المقامات شهادة شيخ البلاغيين، جار الله الزمخشري (٤٦٧-٥٣٨هـ/ ١٠٧٥-١١٤٤م)، الذي يقول:

أُقسِمُ بالله وآياتِهِ ومَشْعَرِ الحجّ وميقاتِهِ

أن الحريريَّ حريٌّ بأن نكتبَ بالتِبْر مقاماتِهِ[1]

وقد تشبَّعتْ ذاكرتي الطفولية بالألفاظ العربية الصقيلة التي صاغ بها الحريري مقاماته، وهذا الكسب اللغوي هو ما كان والدي -رحمه الله- يدفعني إليه. وكان من طرائف الأقدار أن سافرتُ إلى اليمن لتدريس النحو العربي في جامعة الإيمان بصنعاء مطلع العام ١٩٩٧، وكنت صحبة صديقي السياسي والمفكر الإسلامي الموريتاني المعروف محمد جميل منصور في نفس الرحلة، وهو أيضا كان منتدبا للتدريس بالجامعة ذاتها. وحينما حطت الطائرة في مطار صنعاء سحَراً كان أول ما تذكرتُه هو "المقامة الصنعانية"، وهي أُولَى مقامات الحريري. فبدأتُ أردد -وأنا خارجٌ من المطار- عبارات الحريري التي

١- عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب ولبُّ لُبَاب لسان العرب (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٧)، ٦ / ٤٦٢.

صدَّر بها تلك المقامة: "لما اقتعدتُ غاربَ الاغتراب، وأناختني المتربة عن الأتراب، طوَّحتْ بي طوائحُ الزمن، إلى صنعاء اليمن، فدخلتُها خاويَ الوفاض، باديَ الإنفاض، لا أملك بُلْغةً، ولا أجدُ في جِرابي مضغةً."[1]

لقد وجدتُ نفسي وأنا أحطُّ في صنعاء لأول مرة متقمّصا شخصية الحارث بن همام راوي المقامات، وأبي زيد السَّرُوجي بطلها، ولم تكن أوْجُه الشبه بيني وبينهما بالقليلة في تلك الليلة الصنعانية الباردة. فقد جمع بيننا يومذاك حبُّ المغامرة، والولع بالأدب العربي، وضيقُ ذات اليد، فكنتُ حقًّا وصدقاً "خاويَ الوفاض، باديَ الإنفاض". على أن ذلك الإحساس بالاغتراب وخلوّ الوفاض سرعان ما تلاشى حين استقبلنا عند مدخل المطار الشيخ الحافظ محمد المختار الحسن، وهو من أبناء بلدنا

١- انظر: أحمد بن عبد المؤمن الشَّريشي، شرح مقامات الحريري (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٦)، ١ / ٣٧.

الذين سبقونا بالالتحاق بجامعة الإيمان في صنعاء وقد استقبلنا ببهجة وترحاب وهو يردد البيت السائر:

لا بدَّ من صَنْعَا وإن طال السَّفرْ وإن تَحَنَّى كل عُودٍ وانكسرْ

ومكثتُ في صنعاء عامين، فوقعتُ في حبها، وعشقتُ عبق التاريخ في أسوارها القديمة، وصفاء فطرة أهلها، ورائحة البُنّ اليمني تعطِر شوارعها العتيقة ممزوجة بأنداء الصباح. وكانت من ثمار ذِلك قصيدة صنعاء التي كتبتها في واشنطن عام ١٩٩٩ بعد رحيلي من اليمن بنحو عام.

ومن الذكريات الأدبية الجميلة التي ظلت عالقة بذهني من مقامي باليمن (١٩٩٧-١٩٩٨) زيارتي للأديب اليمني الكبير الدكتور عبد العزيز المقالح يوم كان رئيس جامعة صنعاء، فقد اقتحمتُ عليه مكتبه دون معرفة سابقة أو موعد مرتَّب، بعد ما لاحظت أن بابه مفتوح لكل طارق. وأهديتُه بضع قِطع

شعرية لي، فرحَّب بي بكرم وتواضع يماني أصيل، ثم حدثني حديثا طريفا عن رحلة له إلى موريتانيا، خلاصتها أن الجامعة العربية بعثته في الستينيات على رأس وفد، ليقرر ما إن كان الموريتانيون عربا يستحقون أن تُقبل عضوية دولتهم بجامعة الدول العربية، ضمن التحضير للرد على طلب موريتانيا الانضمام للجامعة العربية. وقد اطّلع الدكتور المقالح خلال رحلته تلك على جوانب من الحياة الثقافية في موريتانيا. قال: فلما اكتشفتُ نمط حياة الموريتانيين، وولَعَهم بالشعر العربي، وتمرُّسَهم به، كتبتُ للأمين العام لجامعة الدول العربية تقريرا مفصلا ختمتُه بما معناه: "إذا كان يوجد عربٌ على ظهر الأرض اليوم فهم هؤلاء القوم"! وخرجتُ من مكتب الدكتور المقالح، مبتهجاً بكرمه، ومزدهياً بهذه الشهادة الأدبية لأهل بلدي من رجل في مثل مكانته الثقافية والأدبية.

ومن ذكرياتي الأدبية في صنعاء أن الشيخ الشهيد أحمد

ياسين (١٩٣٧-٢٠٠٤) زارنا من فلسطين، ضمن جولة له في عدد من الدول العربية، ومنها اليمن، وقررتْ رئاسة جامعة الإيمان التي أدرّس بها أن تنظم له حفل استقبال حاشد، فكتبتُ أبياتا في الترحيب به، لكنَّ منظمي الحفل لم يسمحوا لي بقراءتها أمام الشيخ ياسين، لأنها لم تكن ضمن جدول الزيارة، فساءني ضياع تلك الفرصة الثمينة، ثم زالت تلك المشاعر السلبية من نفسي، واقتنعتُ بسداد قرارهم بعد أن ألقى شاعر يمني قصيدة طويلة جميلة في الحفل، لا تُساوي أبياتي القليلة البسيطة شيئًا مقارنة معها، فعرفتُ يومها جانبا من الحكمة اليمانية لم أكن أعرفه. وقد أثبتُّ أبياتي في هذا الديوان بعنوان "ياسين". ولم أخرج من صنعاء خاوي الوفاض كما دخلتُها، بل خرجتُ منها حاملا معي ديوان لعينيْ أمِّ بلقيس لشاعر اليمن عبد الله البردّوني (١٩٢٩-١٩٩٩)، بعد أن سحرني البردوني بجمال شعره، ونحته اللغوي الذي يضاهي في دقته وحسن صنعته نحتَ أهل اليمن للصخر الصنعاني ذي الألوان الطبيعية الزاهية.

مع أبي زيدٍ والعلوج

وعوْداً إلى مقامات الحريري أقول: إن هذه المقامات ليست مجرد نص لغوي أو أدبي، بل هي وثيقة حضارية مشحونة بالدلالات الثقافية والتاريخية، كما أنها من أكثر النصوص تعبيرا عن وحدة الفضاء الحضاري الإسلامي، ويكفي أن يتنقَّل القارئ مع الحريري بين الحواضر الإسلامية العريقة، التي سمى بها أغلب مقاماته، ليدرك الوحدة العضوية بين شعوب الحضارة الإسلامية. فقد سمَّى الحريري بعض مقاماته على حواضر حجازية (المقامة المكية، والطيبية)، ويمنية (المقامة الصنعانية، والزبيدية، والصَّعْدية)، وشامية (المقامة الدمشقية، والحلبية، والمعَرّية)، ومصرية (المقامة الإسكندرانية، والدمياطية، والحلوانية)، وعراقية (المقامة البصرية، والكوفية، والسنجارية)، وأناضولية (المقامة الفارقية، والنصيبية). ولم يقف الحريري عند قلب العالم الإسلامي، بل

توسَّع إلى مناطق أخرى، فكتب مقامات عن الريّ، وشيراز، وسمرقند، والمغرب، وغير ذلك من حواضر الإسلام وأقاليمه.

وفي المقامة الإسكندرانية ألمح الحريري على لسان راوي المقامات الحارث بن همام، إلى أنه طاف العالم الإسلامي كله: "طَحَا بي مَرَحُ الشّباب، وهوَى الاكتساب، إلى أن جُبْتُ ما بين فرْغانَةَ وغانَةَ."[1] وتكاد "فرغانة" و"غانة" تطابقان حدود العالم الإسلامي آنذاك من الشرق إلى الغرب، وتكادان تطابقان حدوده اليوم أيضا، كما لاحظ عالم الجغرافيا السياسية المصري جمال حمدان[2]. ففرغانة توجد الآن في جمهورية أوزبكستان، أما غانة فليس المقصود بها على لسان الحريري جمهورية "غانا" المعاصرة التي ورثت اسمها، بل سلطنة غانة الإسلامية البائدة، التي توجد أطلال عاصمتها "كومبي صالح" اليوم في جنوب شرق

١- انظر: الشَّريشي، شرح مقامات الحريري، ١ / ٢٣٢.
٢ - جمال حمدان، العالم الإسلامي المعاصر (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٧١)، ١٥.

موريتانيا، حيث وُلدتُ ونشأتُ. وكانت سلطنة غانة تنبض بالحياة التجارية والثقافية في أيام الحريري، نهاية القرن الخامس الهجري وبداية القرن السادس، وعنها يقول الشَّريشي شارح المقامات: "وغانة بلد مملكة السودان، وانتشر الإسلام في أهلها، وبها مدارس للعلم. وبها من تجار المغرب كثير، يدخلون التجارة، فيصيبون الخصب والأمن وكثرة المتاجر."[1]

على أني تعاملتُ مع مقامات الحريري في تلك الحقبة المبكرة من حياتي باعتبارها مجرد نص أدبي خيالي، غايته بناء الرصيد اللغوي، وتهذيب الحاسَّة الأدبية. ولم أكتشف بعض الدلالات التاريخية لمقامات الحريري إلا بعد ذلك بأعوام مديدة، وأنا أدرس تاريخ الأديان بجامعة تكساس في الولايات المتحدة، حيث بدأتْ تتردد أسماء مدن وبلدات من الأناضول والشام

١ - الشَّريشي، شرح مقامات الحريري، ١ / ٢٣٣.

والعراق والجزيرة على لسان أستاذي الأميركي لتاريخ الحروب الصليبية الدكتور جون هاوْ. ومن هذه البلدات "الرها" التي يسمونها بالإنكليزية "أديسَّا" -وكانت مقرَّ أول إمارة صليبية أسَّسها الغزاة- و"سَروج" البلدة القريبة منها، وهي مسقط رأس أبي زيد السروجي بطل المقامات.

وقد أصبحت مقامات الحريري مصدر شهرة لبلدة سروج، ولذلك نجد الجغرافي الكبير ياقوت الحموي يكتب عنها: "سَروج: فَعول، بفتح أوله، من السَّرج. . . وهي بلدة قريبة من حرَّان من ديار مضر. . . غلب عياض بن غنم على أرضها، ثم فتحها صلحاً على مثل صلح الرُّها في سنة ١٧ في أيام عمر رضي الله عنه، وهي التي يُعيد الحريريُّ في ذكرها ويُبدِي في مقاماته."[١]

١ - ياقوت الحموي، معجم البلدان (بيروت: دار صادر، ١٩٩٥)، ٣ / ٢١٦. وعياض بن غنم أحد أجواد الصحابة السابقين وشجعانهم، شهد بدراً وأُحداً والخندق وغيرها، وهو فاتح إقليم الجزيرة الفراتية بما فيه «سروج»، وكان يلقَّب «زاد الراكب» لكرمه. انظر: ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة (القاهرة: دار هجر، ٢٠٠٨)، ٧ / ٥٨٢ - ٥٨٢.

ففي أروقة جامعة تكساس بدأتُ أفكر في الدلالات التاريخية لنصوص الحريري العالقة بذهني منذ أيام الصبا، وأتذكر الشكوى المريرة المترددة على لسان أبي زيد من "الأعادي" الذين أخرجوه من بلدته الجميلة الوادعة سَروج، فتركوا في نفسه ألماً مُمِضًّا، وغصَّة دائمة. يقول الحريري في المقامة المكية على لسان أبي زيد السروجي:

سَروجُ داري ولكِنْ كيفَ السّبيلُ إلَيْها
وقدْ أناخَ الأعادي بها وأخْنَوْا علَيْها
فوَالَّتي سِرْتُ أبغي حَطّ الذُنوبِ لدَيْها
ما راقَ طرْفيَ شيءٌ مُذْ غِبتُ عنْ طرَفَيْها[1]

وفي المقامة الملطية يجدد أبو زيد شوقه إلى موطنه سروج، ويشكو فقدان بهجة الحياة منذ أن اضطر إلى هجرها:

١ - انظر: الشَّريشي، شرح مقامات الحريري، ٤٠٤/١.

كُلُّ شِعْبٍ لِيَ شِعْبُ وبهِ رَبْعِيَ رحْبُ
غيرَ أنّي بسَروج مستَهامُ القلْبِ صَبُّ
هيَ أرضي البِكرُ والجوُّ الذي فيهِ المَهَبُّ
وإلى روضَتِها الغَنّاء دونَ الرّوضِ أصْبُو
ما حَلا لي بعْدَها حُلْوٌ ولا اعْذَوْذَبَ عذْبُ[1]

وفي المقامة النجرانية يتردد صدى الحنين إلى سَروج، والبكاء على مراتع الصبا ومغاني الشباب في ربوعها:

سَروجُ مطْلِعُ شمْسي ورَبْعُ لَهْوي وأُنْسِي
لكِنْ حُرِمْتُ نَعيمي بها ولَذَّةَ نفْسي
واعْتَضْتُ عنها اغْتِراباً أمَرَّ يومي وأمْسي[2]

١- انظر: الشَّريشي، شرح مقامات الحريري، ٧٧/٣.
٢- انظر: الشَّريشي، شرح مقامات الحريري، ٧٥/٥.

ولم يصرح الحريري بهوية "الأعادي" الذين هجَّروا بطله أبا زيد السروجي من بلدته الجميلة إلا في المقامة الصورية -نسبة إلى مدينة صُور- حيث تبين أن هؤلاء الأعادي هم "العلوج"، أي الفرنجة الصليبيون الذين اجتاحوا قلب العالم الإسلامي في عاصفة دموية، في ختام القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وسيطروا على مدينة الرها عام ١٠٩٧م، فأسسوا فيها أولى إماراتهم الصليبية الأربع: إمارة الرها، ثم إمارة أنطاكية، ومملكة بيت المقدس، وإمارة طرابلس. وكان الحريري معاصرا لتلك الهجمات الدموية. فهؤلاء الفرنجة الصليبيون هم "العلوج" الذين "زحزحوا" أبا زيد من بلدته الجميلة سروج، وهجَّروه منها قسراً، مثله مثل الآلاف من المسلمين الذين تعرضوا للمذابح والتهجير على أيديهم. يقول الحريري في المقامة الصورية على لسان أبي زيد السروجي:

مَسقِطُ الرَّأسِ سَروجُ وبها كنتُ أمــــوجُ
وِرْدُها مِنْ سَلسَبيلٍ وصحارِيها مُـــروجُ
حبّذا نفْحَةُ ريّــــا ها ومَرآها البَهيــجُ
وأزاهيرُ رُبـــــاهـا حينَ تَنجابُ الثّلوجُ
وَلِمَنْ يَنْزاحُ عنــها زفَراتٌ ونشـــــيجُ
مِثلُ ما لاقَيتُ مُذْ زَحْـزَحَني عنْها العُلــوجُ[1]

فمنطقة الجزيرة الواقعة بين نهري دجلة والفرات -ومن بلداتها الرها وسروج- كانت منطقة احتكاك حربي بين العالم الإسلامي والدولة البيزنطية، ومن ورائها أوروبا المسيحية. ومن الواضح أن الحريري كان واعيا بالمعاناة المزدوجة التي عاشها مسلمو تلك الثغور في أيامه، على أيدي الروم البيزنطيين، وعلى أيدي الفرنجة الصليبيين. ومثله الشَّريشي شارح المقامات، الذي

١- انظر: الشَّريشي، شرح مقامات الحريري، ٤٠٣/٢.

كتب في تعريفه بسروج: "وسَروج هذه بلد بقُرَى وعمارات، وهي من بلاد الجزيرة وكورها المشهورة. والجزيرة انقسمت قسمين: ديار ربيعة وديار مضر، وسروج من كور ديار مضر، وهي ثغرية، إذا كان للمسلمين قوّة يملكونها، وإذا ضعفوا غلبهم الروم عليها، وهي كثيرة الثلج والبرد."[1]

ومما يدل على الوعي السياسي لدى الحريري، وعلى براعته السردية أيضا، أنه ضمَّن آخر مقاماته -وهي المقامة البصرية- قصة ركْب مسافرين "حكوا أنهم ألُمُّوا بسروج بعد أن فارقها العُلوج، فرأَوا أبا زيدها المعروف، قد لبس الصّوف، وأمَّ الصّفوف، وصار بها الزّاهد الموصوف."[2] وهنا إشارة إلى استعادة مدينة الرها وبلدة سروج من أيدي الصليبيين على يد القائد المجاهد عماد الدين زنكي (٤٧٨-٥٤١هـ/ ١٠٨٥-١١٤٦م). وكانت استعادة الرها وسروج عام ١١٤٤م، بعد وفاة

١- انظر: الشَّريشي، شرح مقامات الحريري، ٤٠٤/٢.

٢- انظر: الشَّريشي، شرح مقامات الحريري، ٤٧١/٣.

الحريري باثنين وعشرين عاما . ويبدو أن استعادتهما كانت أمنية في قلبه فحوَّلها إلى حقيقة أدبية. وهكذا ختم الحريري مقاماته ختاما سعيدا، حيث أعلن توبة أبي زيد من فتكاته وتهتُّكاته، وطردَ "العلوج" الصليبيين من سروج في آخر مقامة له، رغم أنه مات قبل تحريرها بأعوام عديدة.

ولا تزال بلدة سروج تتمتع ببقايا من طبيعتها الخلابة التي وصفها الحريري في شعره، وهي إلى ذلك مشهورة اليوم بولع أهلها بتربية الخيول العربية الأصيلة، وتقع على الحدود بين تركيا وسوريا، ضمن محافظة "شانلي أورفة" التركية. وأورفة هي المكافئ التركي للاسم العربي الرها . وقد زرتُ بلدة سروج بجنوب شرق تركيا يوم ٠١ يونيو ٢٠٢١، وأنا أكتب قصة "أيامي مع الشعر" هذه، وقرأتُ فيها بعض الأشعار التي نظمها الحريري على لسان أبي زيد السروجي، وذلك إكراماً لذكرى الوالد

الكريم -رحمه الله- الذي درَّسني مقامات الحريري في أيام الصبا، فكانت تلك إحدى أفضاله عليَّ، في بناء رصيدي اللغوي، وتنمية حاستي الأدبية، وتعميق إدراكي لوحدة الفضاء الحضاري الإسلامي، وتلمُّس جوانب من آلامه وآماله.

ابن الرومي ودموع أبي

لقد خلَّفت الصحبة الأدبية مع والدي ذكرى عطرة وأثراً باقياً، ولم تقتصر صحبتنا على مدارسة مقامات الحريري، بل كان الوالد يمتحنني وإخوتي وأخواتي في الإعراب ونحن صبيان صغار، فيطلب منا إعراب أبيات من الشعر، للوقوف على مستوى مهارتنا النحوية. وكنا نفرح إذا أصبنا الجواب في الإعراب، ونحزن إذا أخطأنا في تلك الجلسات العائلية الأدبية. ولا تزال تَعْلق في ذهني اليوم بقايا من تلك الأخطاء. ومن ذلك أن الوالد رحمه الله سألنا في إحدى الليالي المَطيرة المظلمة، ونحن متحلقون

تحسَّى الشاي الأخضر، أن نُعرب قول الشاعر:

وليلٍ في جوانبه فضولٌ	من الإظلام أطلسَ غيْهَباني
كأن نجومه دمعٌ حَبِيسٌ	ترَقرَقَ بين أجفان الغواني[١]

فلم يستطع أيٌّ منا أن يعرب كلمة "أطلسَ" لعجزنا يومذاك عن فهم معناها، وضعف إلمامنا بقواعد النحو ذات الصلة بالاسم الذي لا ينصرف.

ولا أستطيع أن أنهي الحديث عن صحبتي الأدبية مع الوالد، قبل ذكر بعض النوادر الأدبية، المضحكة والمبكية، التي عشتها معه، ومنها:

أولا: كنت أقرأ بين يديه أحد كتب الأدب -لا أذكر عنوانه الآن- وأنا في السادسة من دراستي الابتدائية. ومررتُ على

١ - أورد البيتين جعفر بن أحمد السرَّاج القارئ في كتابه مصارع العشاق (بيروت: دار صادر)، ٨٧/١، دون عزوهما إلى شاعر بعينه.

بضع قصائد، وهو يتابع ويصحح ويشرح، ثم بدأت أقرأ قصيدة ابن الرومي التي يرثي بها ولده الأوسط:

بكاؤُكما يشْفي وإن كان لا يُجْدي ... فجُودَا فقدْ أَوْدَى نَظيركُما عندي

ألا قاتَل اللَّهُ المنايا ورَمْيَها ... من القَوْمِ حَبَّاتِ القُلوب على عَمْدِ

تَوَخَّى حِمَامُ الموتِ أَوْسَطَ صِبْيَتي ... فلِلَّه كيفَ اخْتار وَاسطَةَ العِقْدِ

على حين شِمْتُ الخَيْرَ من لَمَحَاتِهِ ... وآنَسْتُ من أَفْعاله آيَةَ الرُّشْدِ

طواهُ الرَّدَى عنّي فأَضحى مَزارُه ... بعيداً على قُرْبٍ قريباً على بُعْدِ

لقد أَنْجَزَتْ فيه المنايا وعيدَها ... وأَخْلَفَتِ الآمالُ ما كان من وعْدِ

لَقَد قَلَّ بين المهْد واللَّحْد لُبْثُهُ ... فلم يَنْسَ عَهْدَ المهْد إذ ضُمَّ في اللَّحْدِ[1]

فلما قرأتُ هذا المقطع الأول من القصيدة، أوقفني الوالد وقال باللهجة الحسانية الموريتانية: "كَافِيكْ يا وْلَيْدِي" ومعناها: "حسبُك يا بنيّ"! فرفعتُ وجهي عن الكتاب ونظرتُ إليه،

١ - راجع القصيدة في ديوان ابن الرومي (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢)، ١/٤٠٠-٤٠٢.

فإذا هو مُشيحٌ بوجهه عني، وعيناه تذرفان، وكأنما يحاول إخفاء دموعه عني. ولم يستوعب عقلي الصغير سبب بكائه، فخرجتُ، وأعدتُ قراءة القصيدة المرة تلو المرة، وأنا مثقل القلب بالأحزان. ثم أدركتُ السبب في النهاية، فقد تذكرتُ أني أنا الأوسطُ -بالمعنى الحرْفي للكلمة- بين صِبْيته التسعة الأشقاء، حيث يكبرني أخوان وأختان، ويصغرني أخوان وأختان، وتبيَّن لي أن الوالد -رحمه الله- تماهى شعوريا في تلك اللحظة مع حزن الشاعر ابن الرومي الذي يبكي أوسط صبيته بكاءً مُرًّا في تلك القصيدة، فلم يتمالك نفسه من البكاء، ولم يحتمل إكمال القراءة.

ثانيا: بعثتُ إلى الوالد مع خالتي وأنا طالب أعد الشهادة الثانوية رسالة مكتوبة، أطلب منه أن يزوجني فتاة من معارفنا، فعادت إليَّ الخالة ضاحكة، وسلَّمتْني جوابه مكتوبا على ظهر رسالتي، وهو قول الشاعر:

وكنتَ إذا أرسلتَ طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتْك المناظـــرُ
رأيتَ الذي ما كلُّه أنت قـــادرٌ عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ
فإياك والأمر الذي إن توسَّعـــتْ مواردُه ضاقت عليك المصادرُ[1]

وكان ذلك درسا بليغا في الدعوة إلى الاستعفاف، وعدم التسرُّع في الزواج لمن لم يكن قادرا على تحمُّل تبِعاته ومسؤولياته.

ثالثا: هربتُ مرةً من المدرسة الأهلية "المحظرة" التي كنت أحفظ فيها القرآن الكريم، وعمري نحو الثالثة عشرة، بعد أن سئمتُ الغربة الممضَّة، والدراسة الشاقة، والحياة الصارمة، بعيداً عن أهلي، فقررتُ التخلي عن الدراسة، وسافرتُ من قرية الشيخ المدرّس إلى قريتنا، والمسافة بينهما نحو عشرين كيلومترا، وكنت معتادا أن أسافرها وحدي راجلاً، على حداثة سني

١- تواتر ذكر البيتين الأولين في مصادر اللغة والأدب دون نسبة إلى قائل بعينه، أما البيت الثالث فقد نسبه المستعصمي لطفيل الغنوي. انظر: محمد بن أيدمر المستعصمي، الدر الفريد وبيت القصيد (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٥)، ١٩٢/١٠.

يومها، بفضل التربية الريفية المخشوشنة. وحينما وصلتُ قريتنا، فوجئت بوجود الوالد في القرية، والعادة أنه في تجارته بالمدينة، فسألني عن سبب قدومي غير المتوقَّع، فأجبته بأني قررت التخلي عن الدراسة. فغضب ومنعني من الجلوس والراحة، وأخذني فورا في رحلة العودة إلى شيخي. وفي الطريق مررنا بقوم، فعرفوا الوالد، وأصروا على استضافتنا عندهم للراحة. ثم أصرُّوا على أن نركب أحد جِمالهم إلى وجهتنا. فأردفني الوالد خلفه على الجمل، واستأنفنا رحلتنا، ثم بدأ يترنم بقصيدة المتنبي التي مطلعها:

مَلومُكُما يَجِلُّ عن المَلامِ وَوَقْعُ فعالِهِ فوق الكَلامِ[1]

فلما بلغ قول المتنبي:

وَلَم أَرَ في عُيوبِ الناسِ شَيئاً كَنَقصِ القادِرينَ عَلى التَّمامِ..

١ - راجع القصيدة في ديوان المتنبي (بيروت: دار بيروت، ١٩٨٣)، ٤٨٢-٤٨٥.

توقف طويلا وهو يردد على مسامعي هذا البيت، ثم بدأ يشرحه لي، ويبين لي أن من العيب أن أتخلى عن الدراسة قبل إكمالها . ولم تنفع نصيحة الوالد، ولا حكمة المتنبي، فقد هربتُ في اليوم التالي، والوالد لا يزال في قرية الشيخ. وحين أدرك الوالد هربي، ذهب يطاردني هو والشيخ، خوفا عليَّ من أن يقتلني العطش في الطريق، بسبب رياح السَّموم في ذلك اليوم القائظ، وأمسكاني في منتصف الطريق إلى قريتنا، فودَّع الوالد الشيخ، واصطحبني إلى قريتنا، بعد أن أدرك أن عنادي لا حدود له. ثم عاهد الله تعالى أمام الأسرة أن لا يرغمني على أمر لا أرضاه بعد ذلك اليوم، وقد وفى بعهده حتى رحل عن الدنيا . وأكتفي بهذه الأمثلة من ذكرياتي مع الوالد لارتباطها بالشعر.

مع الرومانسيين العرب

لقد شكلتْ صحبتي الأدبية مع الوالد في تلك الحقبة التكوينية الأولى من حياتي أساسا صلبا أدين له برصيدي اللغوي، وشغَفي بالشعر العربي. ولم تكن مقامات الحريري هي الرافد الوحيد لرصيدي اللغوي والأدبي، فقد حفظت آلاف الأبيات من الشعر العربي، القديم والحديث. ولم أكن أكلف نفسي حفظ الشعر، ونادرا ما تكلَّفتُ في حفظ قصيدة أو أبيات شعرية، إذ كنت أتشرَّب الشعر تشرُّباً دون جهد يُذكر، وساعدني على ذلك ما وهبني الله تعالى في شبابي من سهولة الحفظ وقوة الذاكرة، فكانت القصائد والأبيات التي تعجبني وتطربني تَعْلق بذاكرتي تلقائيا، أما ما لا يعجبني من الشعر فقلَّما أحفظه، وإذا حفظتُه فسرعان ما أنساه أو أتناساه.

وقد أتيح لي بعد المرحلة التكوينية الأولى أن أطَّلع

على الآداب العربية المعاصرة، وانفتحت لي نوافذ غير متوقعة على بعض الآداب العالمية. فقد شغفت خلال إعدادي لشهادة الثانوية بأعمال الشعراء الرومانسيين العرب المعاصرين، وخصوصا شعراء المهجر الشاميين، وأتيح لي الاطلاع على عدد وافر من أعمالهم، فساعدتني على صقل لغتي البدوية الكلاسيكية، والاقتراب أكثر من لغة الشعر العربي الحديث. كما اطلعتُ في هذه الفترة على عدد من أعمال الشاعر العراقي بدر شاكر السياب (١٩٢٦-١٩٦٤) ووجدت لديه قدرة على تفجير اللغة وتوليد المعاني لم أجد مثله لدى غيره من رواد الشعر العربي الحديث.

لكن يمكن القول إن ديوان أغاني الحياة للشاعر التونسي أبي القاسم الشابي (١٩٠٩-١٩٣٤) كان من الروافد الأساسية التي شكلت شخصيتي الأدبية في تلك الأيام، ونقلتني من الأدب

القديم إلى الأدب المعاصر. فقد وُلعت بهذا الديوان أيما ولع، وكدت أحفظه كله، لما فيه من لغة مشرقة، وأخيلة بديعة. كما شُغفت في تلك الأيام بشعر إيلياء أبي ماضي (١٨٩٠-١٩٥٧) الذي لا أعتبره مجرد شاعر، بل هو فيلسوف حكيم، يزرع التفاؤل في النفوس، ويبعث البهجة في القلوب. وإذا كانت محاولاتي الشعرية الأولى خشنة العبارة، تقليدية الصور، بدوية المجازات، فإني سرعان ما تحررتُ من تلك القيود بفضل هذين الشاعرين وأضرابهما، من أمثال ميخائيل نعيمة (١٨٨٩-١٩٨٨) وإبراهيم ناجي (١٨٩٨-١٩٥٣)، وبفضل نقاد من أمثال عباس محمود العقاد (١٨٨٩-١٩٦٤) وسيد قطب (١٩٠٦-١٩٦٦). وقد اطلعت في هذه المرحلة على العديد من كتب شوقي ضيف (١٩١٠-٢٠٠٥)، خصوصا سلسلته الطويلة تاريخ الأدب العربي. وهو وإن كان ذا منزع كلاسيكي، فإنه يضع الأدب العربي في سياق الزمان، ويعين على فهم تطوره التاريخي.

لكن كتابيّ سيد قطب: النقد الأدبي: أصوله ومناهجه، وكتب وشخصيات، كان لهما أعمق الأثر في شحذ حاسَّتي النقدية، وتحرُّري من قوالب الأدب القديم التي نشأت عليها . ويؤسفني حقا أن هذين الكتابين الجليلين لم ينالا حظهما من الاعتراف والتقدير، بعد أن غطت عليهما شهرة كاتبهما في الفكر الإسلامي، واستشهاده في سبيل الدعوة الإسلامية. ولو أن شخصية سيد قطب الأدبية نالت شيئا من الإنصاف لرُفع إلى مصاف عظماء الأدباء والنقاد في تاريخ الأدب العربي.

وأذكر أيضا أني اطلعت في هذه الفترة على ترجمات لأعمال الشاعر الهندي الكبير رابندرانات طاغور (١٨٦١-١٩٤١)، وأني شغفت بروحه الشعرية الرشيقة، وحكمته الفلسفية العميقة. والحق أني لا أستطيع أن أتذكر كل من قرأت لهم من الأدباء في حقبة المراهقة وبواكير الشباب، نظرا لوفرة ما قرأته. فقد كنت ألتهم كل ما يقع تحت يدي من أعمال أدبية، عربية أو مترجمة.

في صحبة "بوشكين"

وفي المرحلة الجامعية انفتحت أمامي نافذة غير متوقعة على الأدب العالمي، وهي ترجمات الأدب الروسي إلى اللغة العربية. فحينما كنت أدرس اللغة الروسية -في قسم الترجمة بجامعة انواكشوط- ترددتُ كثيرا على مكتبة المركز الثقافي الروسي في العاصمة الموريتانية، فاكتشفتُ روائع الأدب الروسي، وشغفت بها لعدة أعوام، وبدأت أقتني كتبه وألتهمها التهاما . ولم يسعفني مستوى لغتي الروسية البسيط بقراءة الأدب الروسي في لغته الأصلية، وإنما كنت أقرأه في ترجماته العربية، وأحيانا نادرة في ترجماته الفرنسية.

فمن الأدباء الروس العظام الذين قرأت عددا من أعمالهم في التسعينات: أبو الأدب الروسي بدون منازع ألكسندر بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧)، وفيودور دوستويفسكي (١٨٢١-١٨٨١)،

وليو تولستوي (١٨٢٨-١٩١٠)، وإيفان تورغينيف (١٨١٨-١٨٨٣) وأنطون تشيخوف (١٨٦٠-١٩٠٤)، ومكسيم غوركي (١٨٦٨-١٩٣٦)، وإيفان بونينْ (١٨٧٠-١٩٥٣) . ولا أزال أتذكر من الأعمال الأدبية الروسية العظيمة التي قرأتها آنذاك: روايتا بوشكين "دوبروفسيكي" و"يفغيني أونيغين"، وقصة "الليالي البيض" لدوستويفسكي، وروايته الفلسفية الطويلة "الإخوة كارامازوف"، ورواية "النفوس الميتة" لغوركي، ومجموعة أعمال تشيخوف، خصوصا قصصه المعنونة "السيدة ذات الكلب" التي أهدانيها صديقي وابن عمي، الإعلامي الأديب محمد المختار بن الخليل، المدير الحالي لمركز الجزيرة للدراسات في الدوحة، بعد ما رآه من شغفي بالأدب الروسي أيام دراستي الجامعية.

وكنت أحرص على اقتناء سلسلة "أعلام الأدب الروسي" الصادرة عن دار "رادوغا" في موسكو، وهي سلسلة

بديعة حقًّا، لكن أثرين أدبيين روسيين من تلك السلسلة خلَّفا في نفسي أثرا عميقا، وحبَّبا إلى قلبي مطالعة الأدب الروسي، وهما رواية إيفان تورغينيف الآباء والبنون، ومجموعة قصص إيفان بونين الدروب الظليلة. وربما يعود ذلك إلى العمق الفلسفي والديني في رواية الآباء والبنون، وتصويرها البديع لصراع الأجيال وتزاحم القيم في الثقافة الروسية، ثم الترجمة العربية البديعة التي صاغ بها الأديب العراقي عبد الله حبَّه مجموعة قصص الدروب الظليلة.

والحق أني لم أجد بين مترجمي الأدب الروسي إلى اللغة العربية من هو أبلغُ لساناً وأعذبُ بياناً من الأستاذ عبد الله حبَّه، وكنت أشعر بأنه مظلوم حين أرى اسمه مكتوبا بخط رفيع جدا في إحدى الصفحات الداخلية لكتاب الدروب الظليلة. وكم كانت فرحتي عظيمة حين التقيتُ الأستاذ عبد الله حبَّه

في الدوحة بعد نحو ثلاثة عقود من قراءتي تلك الترجمة، حيث حصل باستحقاق على جائزة حَمد بن خليفة الدولية في الترجمة، وقد سعدتُ كثيراً حين سمعتُ بالخبر، إذ كيف يجوز أن يبقى مثلُه دون اعتراف وتقدير في أمة تحترم ذاتها ؟ !

لقد شغفتُ بالأدب الروسي وتذوقته، ولم يكن حالي كذلك مع الآداب الغربية، فليت شعري ما هو السر في ذلك؟ سألتُ هذا السؤال في لقائي العابر مع الأستاذ المترجم عبد الله حبَّه بالدوحة عام ٢٠١٩، فكان جوابه أن الأدب الروسي أقربُ إلى روحنا المشرقية من الأدب الغربي. ولستُ أملك من الخبرة في الأدب المقارَن ما يسمح لي بإصدار حكم أطمئن إليه في هذا المضمار، على نحو ما فعل الأستاذ حبة وهو الضليع بالآداب العالمية، رغم إدراكي أن الأدب الفرنسي في حقبته الرومانسية خالطه نَفسٌ مشرقي أيضا، وظهر فيه تفهُّم للثقافة الإسلامية

وتعلُّقٌ بها، على نحو ما نجد مثلا في قصيدة "العام التاسع الهجري" L'an neuf de l'hégire للشاعر الفرنسي الكبير فيكتور هيغو.

ومع ذلك فقد لاحظتُ خلال قراءاتي في الأدب الروسي ما يدل على الروح المشرقية المنبثَّة في الأدب الروسي، على نحو يزكّي ما ذكره الأستاذ عبد الله حبة. فقد وجدتُ أن عظماء الأدب الروسي تأثروا بالثقافة الإسلامية تأثرا عميقا، ومنهم بوشكين، وتولستوي، ودوستويفسكي. ويكفي مثالا على ذلك تلك القصائد التسع التي كتبها أبو الأدب الروسي ألكسندر بوشكين بعنوان: "قبسات من القرآن"، وهي منشورة ضمن مجموعته الشعرية القصائد الشرقية. وحتى إيفان بونين –وهو الأديب الروسي المفضل لديَّ– فوجئتُ بعمق تأثره بالثقافة الإسلامية، وإفراده قصائد من شعره لموضوعات إسلامية.

ويبقى أن أقول إني لم أنجذب للأدب الروسي بعد الشيوعية، بمثل انجذابي إليه في حقبته السابقة عليها . وربما أستثني من ذلك شذراتٍ من شعر كونستانتين سيمونوف (١٩١٥-١٩٧٩) سحرتْني روحُها الملحمية النابضة بمعاني الشجاعة والفداء . ولا تزال ذاكرتي تحتفظ بمقاطع من قصيدته الرائعة "انتظرني"، وقد كتبها سيمونوف وهو على خط النار، دفاعا عن وطنه في الحرب العالمية الثانية، فتحولتْ نشيداً ملحميًّا على كل لسان في الجيش السوفييتي، حتى إنها وُجدتْ في جيوب الجنود الروس القتلى على الجبهات، كما يقال. وقد حفظتُ مقاطع من تلك القصيدة باللغة الروسية أيام دراستي بقسم الترجمة، ولم أعُدْ أتذكر من النزر اليسير الذي تعلمتُه من اللغة الروسية سوى تلك المقاطع الجميلة، وبضع مفردات وجمل أخرى.

"أزهار الشرّ" في تكساس

ومن العجَب أني لم أتذوق الأدب الفرنسي والأميركي، رغم تمكُّني من قراءة كل منهما في لغته الأصلية، واطلاعي على جوانب من الثقافة الفرنسية، ثم دراستي بالولايات المتحدة ومُقامي فيها عَقداً من الزمان. وقد كانت لي مطالعات محدودة في الشعر الرومانسي الفرنسي، خصوصا شاتوبريان (١٧٦٨–١٨٤٨) وفيكتور هيغو (١٨٠٢–١٨٨٥)، ولا أزال أحفظ شذرات من ديوان هيغو أوراق الخريف Les feuilles d'automne . كما أني تناولتُ مارك توين (١٨٣٥–١٩١٠) –الذي اشتهر بلقب أبي الأدب الأميركي– في بعض ما كتبتُه عن صورة المسلمين في الثقافة الأميركية. لكني لم أهتمَّ بالأدب الفرنسي أو الأميركي الاهتمام الذي يستحقانه. والطريف أني حينما وصلتُ أميركا للدراسة مطلع العام ١٩٩٩ كنت أحمل في حقيبتي ترجمة عربية لرواية

الإخوة كارامازوف للأديب الروسي ديستوفسكي، وهو ما يدل على أن الأدب الروسي تمكَّن من قلبي على فراغ، فلم يترك فيه مساحة للأدب الأميركي. وقد يكون سبب هذا الصدود أن هجرتي إلى الولايات المتحدة تصادفت مع تصاعد اهتمامي بالفكر والسياسة، وذبول اهتمامي بالأدب بشكل عام.

وعلى ذكر الأدب الأميركي سأحكي قصتين من الطرائف الأدبية التي عشتها خلال مقامي في الولايات المتحدة. أولاهما أن صحفيا أميركيا زارني، وأخبرني أنه يُعدُّ كتابا يتناول مائة عام من التطور الثقافي والبشري في مدينة "لباكْ" التي كنت أقيم بها بولاية تكساس الأميركية. وطلب مني أن أكون ضمن الأشخاص الذين يضمهم كتابُه، مثالاً على ظهور أطياف ثقافية وبشرية عربية ومسلمة في المدينة لم تكن معهودة في تاريخها. وفي سياق حديثنا عن اندماج العرب والمسلمين في نسيج تلك المدينة الأميركية، سألني الكاتب الأميركي عن شعوري الشخصي

تجاه البيئة الاجتماعية والثقافية في الولايات المتحدة، فأجبتُه بأن مشاعري في هذا المضمار متضاربة، وأن حالي يشبه حال شاعر عربي قديم، هو أبو الطيب المتنبي (٣٠٣-٣٥٤هـ /٩١٥-٩٦٥م)، الذي زار مواطنَ من بلاد فارس، فأعجبه جمالُها، لكن جمال البلاد لم يكفكف من إحساسه بالغربة الإنسانية والثقافية، وكتب في ذلك شعراً. فطلب مني الصحفي الأميركي قراءة ذلك الشعر بالعربية، فقرأتُ عليه أول بيتين من قصيدة المتنبي:

مَغاني الشِّعْب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمانِ
ولكن الفتى العربيَّ فيها غريبُ الوجه واليَدِ واللسانِ[1]

فألَحَّ عليَّ أن أكتب له البيتين بالعربية بخط يدي، وأن أترجمهما له إلى الإنكليزية، وصوَّر الورقة المخطوطة، وصورني في ثوب أبيض من النوع الشائع لدى أهل الجزيرة العربية، ثم وعد بتضمين

١- انظر القصيدة في ديوان المتنبي، ٥٤١-٥٤٥.

صورتي وصورة البيتين بخطي العربي في الكتاب. ولا أدري هل فعل ذلك أم لا، فقد نسيتُ الكاتب والكتاب بعد ذلك، لكن أبهجني يومها أن تظهر آثار من الثقافة العربية في تاريخ مدينة أميركية نائية، رغم إحساسي بالحرَج من رداءة خطِي الذي ربما يكون ظهر في ذلك الكتاب! وقد كنت -ولا أزال- أعزّي نفسي في رداءة خطي، بأنه ليس أسوأ حالا من خط الشاعر العظيم أبي القاسم الشابي، والمفكر العظيم مالك بن نبي (١٩٠٥-١٩٧٣)، وكلاهما من أحب الناس إلى قلبي، ومن أعظم الأقلام تأثيرا في أفكاري ومشاعري.

أما الطرفة الثانية ففيها شيء من الغرابة، وذلك أن ضباطا من مكتب التحقيقات الفيدرالي الأميركي FBI زاروني أكثر من مرة، وطلبوا مني العمل مع وكالتهم مترجماً، وهي طريقة مهذَّبة في تجنيد جواسيس لهم على الجالية الإسلامية الأميركية. ولم أستغرب الأمر أبدا، فقد كنت على علم بسعي هذه الوكالة

الحثيث إلى تجنيد العديد من المسلمين المقيمين بالولايات المتحدة بعد هجمات ١١ سبتمبر، خصوصا ممن يعملون في مؤسسات إسلامية، كما هو حالي يومها . لكن ما استغْربتُه واستطْرفتُه هو أن ضباط مكتب التحقيقات الفيدرالي جلبوا معهم هدية لي في إحدى زياراتهم، وكانت الهدية علبة من القهوة الأثيوبية ذات الجودة العالية، وديوان أزهار الشر Les Fleurs du Mal للشاعر الفرنسي شارل بودلير (١٨٢١-١٨٦٧) باللغة الفرنسية. وكنت عرفتُ بودلير وديوانه أزهار الشر -الذي هو أشهرُ آثاره الأدبية- من خلال أستاذ لي بجامعة انواكشوط، درَّسنا مادة في الأدب الفرنسي قبل ذلك بسنين، وكان مولعاً بتشريح أشعار بولدير، وفكّ طلاسمها ومجازاتها الرمزية.

لكن ما الذي يفعله ديوان أزهار الشر في لغته الأصلية بأيدي ضباط أمن بمدينة أميركية نائية لا يكاد يوجد فيها من ينطق باللسان الفرنسي؟ وما الذي دفعهم إلى إهدائي هذا

الديوان الفرنسي وتلك القهوة الأثيوبية تحديدا ؟ لستُ أدري، لكن يمكنني التخمين أنهم أدركوا ولعي بالقهوة والشعر، فقرَّروا طرْقَ أبواب القلب عبر هاتين الهديتين الرمزيتين. وفي كل الأحوال، فقد اعتذرتُ لهم وتملصتُ منهم بأدب، لكن يبدو أن تقديرهم قادهم إلى الاعتقاد بأني أبحث عن عرْض أفضلَ! فجاءوني من واشنطن بضيف من وكالة الاستخبارات الدفاعية الأميركية DIA، وعرَض عليَّ العمل مع وكالته "خبيراً" متخصصا في الحركات الإسلامية، وهي صيغة أخرى مهذَّبة لتجنيد الكتَّاب جواسيسَ، بعد شحْذ نرجسيتهم بالألقاب، مثل لقب "الخبير"، ومنحهم المال الوافر والجنسية الأميركية.

وبعد طول إلحاح وإلحاف، ومحاولات إغراء وإغواء، كشفتُ للضيف والمضيف عن شخصيتي البدوية، وبينتُ لهما أني تربيتُ على ظهور الإبل في الريف الموريتاني الفقير، وأني أستطيع العيش بدون "البيتزا" الأميركية. فانصرفوا بلطفٍ،

والحرجُ بادٍ على وجوههم من كلماتي الصريحة، التي لم أحاول تغليفها بغلاف دبلوماسي. وانتهى الأمر برفض منْحي الإقامة الدائمة بالولايات المتحدة، والتحفظ على تجديد إقامة عملي، فاضطررتُ لترك الولايات المتحدة في سبتمبر من العام ٢٠٠٨، وقد عوَّضني الله خيراً منها بالإقامة في دولة قطر بتقاليدها العربية المضيافة، وبجنسية تركيا الدولة التي جمعت محاسن الشرق والغرب، ومن ترك شيئًا لله عوضه خيرًا منه ولله الحمد أولاً وآخراً.

وقبل أن أختم الحديث عن "أزهار الشر"، أشير إلى لقائي مع أحد المثقفين العرب الأميركيين في أحد المؤتمرات، أثناء الفترة التي كان فيها مكتب التحقيقات الفيدرالي ووكالة الاستخبارات الدفاعية الأميركية يحاولان إغوائي وجذبي إلى صفهم. وحينما حدَّثتُه عن مساعيهم وزياراتهم المتواترة لي في تكِساس لم يردّ، وتجاهل الموضوع تماما، مما يدل على أنه أكثر حصافة سياسية

مني. وبعد ذلك جاءني بورقة قد طُبعتْ عليها مقاطع من قصيدة الشاعر المصري أمل دنقل الشهيرة: "لا تُصَالحْ":

لا تُصَالحْ

ولو منَحوك الذهبْ

أترَى حين أفقأُ عينيكَ . .

ثم أثبّتُ جوهرتين مكانهما . .

هل تَرَى؟

هيَ أشياءُ لا تُشتَرَى . . . [1]

ثم قال: "هذه هدية مني إليك." ففهمتُ الرسالة، وشكرتُه من قلبي دون لساني، ولم أعُدْ إلى الحديث عن الموضوع معه، تجنُّبا

١ - انظر نص القصيدة كاملا في: أمل دنقل، الأعمال الشعرية الكاملة (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٩)، ٣٢٤-٣٣٦.

لإحراجه، ومراعاةً لـمُحاذرته المشروعة. ولا أزال أحتفظ بتلك الورقة منذ نحو خمسة عشر عاماً، عرفاناً بالجميل لذلك المثقف الناصح، رغم أنه لم يفعل أكثر من تأكيد المؤكَّد، فقراري بعدم "التصالح" مع القوم كان قد صدَر دون تردد أو لجلجة.

ويبدو لي أن ضباط مكتب التحقيقات الفيدرالي ووكالة الاستخبارات الدفاعية الأميركية قد أخطأوا التقدير مرتين: مرة حين حسبوا أنهم سيكسبونني جاسوساً لهم على المسلمين مقابل عَرَض زائل وزادٍ زهيدٍ، والثانية حين ظنوا أني أحب الأدب الفرنسي الذي لم يلامس قلبي قطُّ، وإن كنتُ لا أنكر قيمته بين الآداب العالمية. فكانت أزهار الشر التي جاء بها أولئك القوم في غير محلها، فلم تتفتَّق على النحو الذي أمّلوه. . والحمد لله على رعايته وتسديده.

هنيهةٌ في مسجد قرطبة

وكان من آخر الروافد التي رفدت ذاتي الأدبية، وأثَّرت فيها تأثيرا عميقا، شاعر الإسلام الفيلسوف محمد إقبال (١٨٧٧-١٩٣٨) . فقد عرفتُ إقبالاً معرفة إجمالية في وقت مبكر عبر مطالعات متناثرة، منها كتاب إقبال: الشاعر الثائر للطبيب الأديب المصري نجيب الكيلاني (١٩٣١-١٩٩٥)، وكتاب روائع إقبال للعلامة الهندي أبي الحسن الندْوي (١٩١٤-١٩٩٩) . لكن الاهتمام العميق بشعر إقبال لم يبدأ عندي إلا بعد حصولي على ترجمة لديوانيْه جناح جبريل والأسرار والرموز في نهاية التسعينات، فاندفعتُ بعد ذلك إلى قراءة كل دواوينه التسعة في ترجماتها العربية، وأحيانا في ترجماتها الإنكليزية والفرنسية، وحفظت مئات الأبيات من الترجمة العربية لشعره، خصوصا من ديوان جناح جبريل الذي يبدو لي أكثر أعمال إقبال

تعبيرا عن روحه الشعرية. وقد لاحظت أن أفضل من صاغ شعر إقبال باللغة العربية هو الشيخ المصري الأزهري الضرير الصاوي شعلان (١٩٠٢-١٩٨٢)، والشاعر السوري المعاصر زهير ظاظا.

وكنت لسنين أصطحب معي ديوان جناح جبريل كلما ركبت الطائرة، وأحرص على قراءته في رحلاتي الجوية، لأسباب غامضة لا أملك لها شرحا، سوى أن عبارة "جناح جبريل" تملأ نفسي بمعاني العلوّ والسموّ. ولا أنسى رحلة بالطائرة بين صنعاء والقاهرة، وأنا أقرأ هذا الديوان، ثم أنظر من النافذة كلما مررتُ بمجاز شعري ذي صلة بسيناء أو جبل الطور، وأتمنى لو أراهما رأي العين. فمع محمد إقبال وجدتُ ذلك التركيب العظيم بين الروح الإسلامية والخيال الشعري، فكان تأثيره واضحا في قصائدي الحجازية السينائية. كما وجدتُ في شعر إقبال خلال

مقامي المديد في الولايات المتحدة درعا حصينا من تحلُّل الحياة الاجتماعية الغربية، وتلاشي الحدود بين الإنسان والحيوان في بعض جوانبها . فليس كشعر إقبال ملهمًا للعزة الإيمانية، ودرعًا للهوية الإسلامية.

ومن قصائدإقبال البديعة التي لي معها قصة، قصيدة "مسجد قرطبة"، وهي توصف بأنها أبلغُ أثر أدبي مكتوب باللغة الأوردية، كما أن صياغتها العربية من أبدع الصياغات لشعر إقبال. ومطلع ترجمتها العربية هو:

قصْرُ التاريخ ومسجدهُ ما أروع مَا صنعتْ يدُهُ [1]

وقد أحسن الأديب السوري زهير ظاظا في صياغتها على نمط قصيدة الأديب علي بن عبد الغني القيرواني الضرير (ت ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) التي مطلعها:

١- راجع القصيدة في ديوان إقبال، جناح جبريل، ٤٧٨/١-٤٨٠.

يا ليل الصبُّ متى غدُهُ؟ أقِيامُ الساعة موعدُهُ[1]

أما قصتي مع قصيدة "مسجد قرطبة" فحاصلها أني شاركتُ عام ٢٠١٥ في مؤتمر بمدينة غرناطة الأندلسية، وهي تبعد عن قرطبة أكثر من مائتي كيلومتر، فقلت لأحد زملائي بالمؤتمر إني لا أستطيع العودة من تلك الرحلة قبل أن أقرأ قصيدة إقبال "مسجد قرطبة" داخل مسجد قرطبة. وهو مسجد عظيم كان قلب مدينة قرطبة يوم كانت عاصمة الدولة الإسلامية في الأندلس، ثم حوله الصليبيون الأسبان كنيسة، بعد سقوط قرطبة بأيديهم عام ٦٣٣هـ ١٢٣٦م ضمن الهجمة الصليبية الشاملة على قلب العالم الإسلامي وأطرافه في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين. بيد أنها كنيسة من نوع خاص: فهي مرصَّعة الجدران بآيات القرآن الكريم حتى اليوم، وفي خاصرتها الشرقية

١ - راجع القصيدة في تقديم كتاب إبراهيم بن علي الحُصري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب (بيروت: دار الجيل، بدون تاريخ)، ٩/١-١٠.

محراب مسجد، بل ولا تزال تُسمَّى باللغة الأسبانية "المسجد-الكنيسة"! Mezquita-Catedral de Córdoba.

وقد اعترض منظمو المؤتمر على غيابي عن بعض الجلسات، واستكثر عليَّ بعض زملائي السفر بضع ساعات من أجل قراءة قصيدة في مسجد قرطبة، لكني ضربت عرض الحائط بكل ذلك بعد أن تذكرتُ بيتا للشاعر الفارسي العظيم سعدي الشيرازي (٦٠٦-٦٩٤هـ/ ١٢٠٩-١٢٩٤م)، الملقب "بلبل شيراز"، أورده إقبال في جناح جبريل، حيث يقول سعدي في ذلك البيت:

من الفقر أن تأتي وِفَاضُك فارغٌ وقد طفتَ في تلك الرياض جميعِها[1]

وركبتُ الحافلة مَيَمّما قرطبة، ودخلتُ المسجد، وقرأتُ قصيدة إقبال في المسجد، واستطعتُ التملص من شرطي أسباني -أراد

١- إقبال، جناح جبريل، ٤٩٩/١.

منعي من قراءتها- بالاختباء خلف حشد من السائحين! ولم أمكث في قرطبة إلا قدْرَ ما أقرأ تلك القصيدة في مسجدها التاريخي الفخم، ثم قفلتُ راجعا إلى غرناطة في الحافلة، وأنا أترنم بالأبيات الأخيرة من قصيدة إقبال "مسجد قرطبة":

كنخيل الشام وأعمُدِها شمختْ في المسجد أعْمُدُهُ
تتألق زُرقةُ قبَّته وتُقيم الليلَ وتُقعِدهُ
وتنهُّدها في وحدتها كالطُّور كَواهُ تنهُّدهُ[1]

ثم بأبيات من قصيدة "أسبانيا" التي ودَّع بها إقبال مسجد قرطبة، وهي قوله:

صوتُ المنائر في نسيمِكَ يرقُدُ وصداهُ في أرواحنا يتردَّدُ
يا توأم الحرَم الشريف تطوَّفتْ بك رُكَّعٌ من عاكفين وسُجَّدُ

١- إقبال، جناح جبريل ، ٤٨٠/١.

سيماكَ من أثَرِ السجود على الثَّرى　　　طربٌ يفوحُ ونضْرةٌ تتجدَّدُ
يا طالما سُفكتْ هناك دماؤنا　　　ظلماً ونحن المُشْفقون العُوَّدُ
خمدتْ حقيقتنا وزال بريقُنا　　　وبريق قرطبةَ الشريدُ مخلَّدُ
ووقفتُ لا نوْمي حمدتُ ولا السُّرى　　　أتكبَّدُ الجرحَ الذي أتكبَّدُ[1]

ويا لها من ساعة مباركة تلك التي قضيتها في رحلتي العابرة إلى مسجد قرطبة، رغم الأسى الدفين الذي بعثته الذكرى في نفسي على ضياع قرطبة، التي كانت عاصمة الدولة الإسلامية في الأندلس، وحاضرة الثقافة العربية، و"دار العلوم" بتعبير الشاعر أبي البقاء الرندي (٦٠١–٦٨٤ هـ / ١٢٠٤–١٢٨٥م) في قصيدته الشهيرة في رثاء الأندلس:

وأين قرطبةٌ دارُ العلوم؟ فكمْ　　　من عالِمٍ قد سما فيها له شانُ[2]

١ - إقبال، جناح جبريل، ٤٨٥/١.
٢ - انظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠-١٩٩٥)، ٣٩٠/٨.

ومن خلال محمد إقبال اكتشفتُ الشاعر الصوفي العظيم جلال الدين الرومي (٦٧٢-٦٠٤هـ / ١٢٧٣-١٢٠٧م) الذي يعتبره إقبال أستاذا له وملهما، فاطلعتُ على بعض أعماله، ووجدت أفضل ترجماته هي الترجمة الإنكليزية البديعة بقلم الشاعر الأميركي كولمان باركس الذي اتخذ من ترجمة شعر الرومي والتعريف به رسالته في الحياة. أما الترجمات العربية للرومي، سواء ما كان منها نثرا مثل ترجمة سيد دسوقي شتا للمثنوي، أو شعرا مثل ترجمة محمد جمال الهاشمي للكتاب ذاته، فلم أجد فيها نَفَساً أدبيًّا يكافئ نَفَس الرومي وخياله الخصيب.

ولا يمكن أن أنسى أني أدين للرومي بعنوان ديواني الصغير هذا، وبإحدى أهم قصائده، وهي قصيدة "أغاني الحجاز". فقد كنت مرة أقرأ قصيدة الرومي "حديث الليل" فصادفتني هذه العبارة الإنكليزية من ترجمة كولمان باركس للقصيدة: "تلك

روحي الجريحة " [1] That is my wounded soul فأوحت لي العبارة على البديهة بقصيدة "أغاني الحجاز" التي بدأتها بعبارة "جراح الروح".. وهي العبارة ذاتها التي اتخذتُها عنوانا للديوان، وكنتُ أبحث له عن عنوان مناسب لعدة أعوام، وغيرتُ العنوان أكثر من مرة، من "الفجر الصادق" إلى "دموع الندى" إلى "أغاني الحجاز"... لكني تخليتُ عن كل تلك المحاولات بعد قراءة كلمات الرومي المعبّرة، واستقرَّ قراري واختياري على عنوان: "جراح الروح". وكانت معرفة الرومي مدخلا لي للاهتمام بعظماء الأدب الفارسي، خصوصا سعدي الشيرازي، والفردوسي (٤١٠-٣٢٤هـ/ ٩٣٥-١٠٢٠م)، وعمر الخيام (ت ٥١٥هـ / ١١٢١م). وإن لم يكن الخيام غريبا عليَّ، نظرا لاطلاعي على ترجمة أحمد رامي لرباعياته قبل ذلك.

1- Rumi, The Essential Rumi, Translated by Coleman Barks (New Jersey: Castle Books, 1987), 77.

مع محمد عاكف أرصوي

وقد اهتممتُ -كما اهتم كثيرون غيري من الشباب الإسلامي في الثمانينيات والتسعينيات- بظاهرة الأدب الإسلامي، وتابعت النقاشات والدراسات النقدية عنها، ومنها كتابات المؤرخ الأديب العراقي عماد الدين خليل، والناقد المغربي محمد إقبال عروي، والطبيب الأديب المصري نجيب الكيلاني، وقد جمع الكيلاني بين التنظير لفكرة الأدب الإسلامي وممارستها في رواياته العديدة، وفي ديوانيْ شعره أغاني الغرباء وعصر الشهداء. كما طالعتُ في تلك الفترة مقالات متناثرة عن الموضوع بمجلة "الأمة"، التي كانت تصدر من قطَر آنذاك، بتحرير الأستاذ المفكر عمر عبيد حسنة.

لكني لم أجد من الشعراء المعاصرين من بلغ في تمثُّل الروح الإسلامية في شعره، مثل ما بلغ شاعران، هما محمد

إقبال ومحمد عاكف أرصوي (١٢٩٠ - ١٣٥٥هـ / ١٨٧٣ - ١٩٣٦م)، وكلاهما لُقِّب "شاعر الإسلام" باستحقاق.[١] وقد تحدثتُ عن إقبال سلفاً، أما محمد عاكف فهو مفكر وشاعر تركي عظيم، اختار البرلمان التركي منذ مائة عام إحدى قصائده لتكون النشيد الوطني للجمهورية التركية الوليدة. وقد حاز أرصوي هذا الشرف من بين سبعمائة شاعر تركي. كما خلَّد أرصوي معركة "جناق قلعة" التاريخية عام ١٩١٥ في بعض روائعه الشعرية. وهي الملحمة التي أنقذت اسطنبول من سيطرة تحالف عسكري ضخم في الحرب العالمية الأولى، ضمَّ فرنسا وبريطانيا وروسيا القيصرية وأستراليا ونيوزيلندا. وتعتبر هذه المعركة -إلى جانب معركة "كوت العمارة" في العراق- آخر الانتصارات العظيمة للدولة العثمانية قبل أفولها.

١- اشتهر محمد إقبال بلقب «شاعر الإسلام»، لكن إبراهيم صبري في ترجمته للظلال الصادرة عام ١٩٣٣ ذكر أن محمد عاكف أرصوي «لُقب بشاعر الإسلام في الأوساط الأدبية» (ص ٨)، مما يعني أن حصوله على هذا اللقب كان قديما، شأنه شأن إقبال.

ولم أحظ بالاطلاع الواسع على شعر محمد عاكف -بكل أسف- على نحو ما اطلعتُ على شعر محمد إقبال. وذلك بسبب حواجز اللغة، وزهد العرب المعاصرين في الثقافة التركية، جراء القطيعة الثقافية بين الأمتين أثناء الحرب العالمية الأولى، وما صاحب ذلك من هوَس قومي متنكر للأرحام الإسلامية والإنسانية بين الأمتين. . ومع ذلك فقد تتبعتُ المتاح من شعر محمد عاكف بالعربية والإنكليزية، واطلعتُ على الجزء السابع من ديوانه صفحات، في ترجمة عربية قديمة بعنوان الظلال بقلم الأديب المصري إبراهيم صبري.[1] وقد اكتفي صبري بترجمة ذلك الجزء الأخير من الديوان الذي كتب عاكف جُلَّ قصائده خلال منفاه في مصر، ولو كان ترجم الديوان كله لكان أسدى لقراء اللغة العربية خدمة جليلة.

ولا تزال لديَّ أمنية الاطِلاع على شعر كل من محمد

١ - محمد عاكف، الظلال، ترجمة إبراهيم صبري (القاهرة: ١٩٣٣ دون ذكر الناشر).

إقبال ومحمد عاكف في لغته الأصلية، وأجد بين الرجلين قرابة عقلية ووجدانية عجيبة، حتى لكأن القارئ لشعر أحدهذين الشاعرين يحس بأنفاس الشاعر الآخر. ويدل ما وصل يدي من شعر محمد عاكف على خيال شعري خصيب، وروح إسلامية متوثبة، ومحبة عظيمة للنبي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، عبَّر عنها بقوله:

"في ليلة من الليالي قبل أربعة عشر قرناً

ظهر من الرمال يتيم كالقمر.

ولكن يا لها من خسارة! لم تشعر به الأبصار

وقد كان الناس ينتظرونه من آلاف السنين.

وقد أنقذ الإنسانية ذلك الصبي البريء بنفخة منه

وهزم قيصر وكسرى بضربة

وقد شمل ظِلُّ جناحه كلَّ من يطلب العدل.

إن البشر بأسْرهم مدينون لذلك الصبي.

فابعثنا يا إلهي يوم المحشر على هذه العقيدة."[1]

ويبقى أن أقول إن شعري القليل سجِلٌّ لتموجات وجداني على مدى عقود من الزمان، فلا يستغربنَّ القارئ الكريم إن وجد فيه كل التناقضات الشعورية التي تموج بها النفس، من البهجة والتفاؤل بفجر الحياة، إلى الألم والتوجُّع من واقع الأمة، ومن الحب الانفعالي المتوتر في لحظة من لحظات العمر، إلى الحب "السعيد المديد" بتعبير الأديبة الروسية آنا سآكيانتس.[2] فالشعر مجرد مرآة للوجدان في حركته الدائبة التي لا تقرُّ على قرار. وربما يتمنى كل الشعراء لو كانت أشعارهم فضاءً زاهياً من السعادة

١- عاكف، الظلال، ٩٤-٩٥.

٢- انظر إيفان بونين، الدروب الظليلة: مجموعة أقاصيص، ترجمة عبد الله حبة (موسكو: دار رادوغا، ١٩٨٧)، ص ١٣ من تقديم آنا سآكيانتس.

أيامي مع الشعر

الدائمة والمشاعر البهيجة، لكن تموجات الحياة هي التي تقود قلب الشاعر في نهاية المطاف. وقد قال الشاعر محمد عاكف أرصويْ: "لو عشتُ في زمن الربيع لشدوْتُ شدْوَ البلابل."

ولأن الهمَّ الأهمَّ للشاعر والكاتب هو أن تلامس كلماته وجدان الناس، وتحرّك شغاف قلوبهم، حتى ولو بعد رحيله عن الدنيا، فإني أجد خَير ختام لأيامي مع الشعر أن أدعو بدعاء الشاعر الفيلسوف محمد إقبال في جناح جبريل:

خشوعي في عذاباتي ووثْبِي في طموحاتي
وفِكْري وهْو بستانٌ ونفسي وهْي مرآتي
وقلبي وهْو ميدانٌ تضجُّ به عراكاتي
ودرْوشتي التي تبدو نصيبي من معاناتي
سألْتكَ أن تُعتّقَها وتمزُجها بآهاتي
وتسقيها لقافلتي بموكب جيلنا الآتي[1]

1- إقبال، جناح جبريل، 1/514.

نصوص الديوان

أغاني الحجاز

جراح الروح في قلمـــي   تفيـض بدمعـة ودَمِ
فتسقيــني عذاباتـــي   تباريحًـا من الألـــمِ
أناجي الركب مشتاقاً   لجيـرانٍ بِـذِي سَلَـمِ
على رمْضائهم أشْدُو   وأعْدُو حافِيَ القَدمِ
وأحكِي من مآثرهــم   حَكَايا الحـيِّ والخِيَـمِ
أُطارد طيفَ أشواقـي   بقلـبٍ للحبيب ظَـمِ
وأنثُـر دمعتي الحـرّى   على خـدّيّ بالحـرَمِ
ينام الكون من حولِـي   وعـينُ الشـوق لم تـنَـمِ

***

على السفحين من أُحُدِ   حفرْتُ لمضجعي بِيَدي
ورُوحي للذُّرى حنّـتْ   فضاق بحمْلها جسَـدي

سقطتُ ولذَّةُ اللُّقيا على قلبي على كبدي
قريرَ العين مبتهجًا بعيشٍ ناعمٍ أبدي
وكمْ في السفح من ظبيٍ وكمْ في السفح من أسَدِ
فنحن القومُ إن غامتْ دروبُ مسيرنا لِغَدِ
أضاأناها بلَمْعِ السَّيْف بين الروح والجسدِ
بكفٍّ غيرِ مرتعشٍ وقلبٍ غيرِ مرتعدِ

***

وفي البطحاء من بدرِ بذرْنا بذرة الفجرِ
سَقيْنا روحَها الظَّمْأَى بفيضِ دمائنا الحُمْرِ
فمدَّ الفجرُ أجنحةً بنُور الفتح والنصرِ
تضمّخُه الأزاهيرُ
بأنفاس من العِطرِ

وتسقيه العصافــيرُ

رحيقَ الشدْو والنقرِ

فنـورُ البدر من بـــدْرٍ دم في الـروح يستشري

يحـرِّرُ أرضَ أقــصانـا مـن البحــر إلى النــهْـرِ

ويُفنِـي الليـل والظلمـاء إلا ليـلــة القــــدْرِ

(لباكْ، الولايات المتحدة، 2005)

دُمُوع النَّدَى

هو الفجر يمـزج بين السطـورْ | دموعَ الندى وابتسامَ الزهــورْ
فلا تبتـــئسْ إن ألمَّتْ بنا | خطوبٌ تُذيب قلوبَ الصخورْ
تداعتْ علينا فلــولُ الدُّجَى | وظنَّت من الجهل أن لَّن نَحُورْ
بلى إن موكبَ أشواقـــنا | لآتٍ بكـل المُنى والســرورْ
سندفُـن آلامَـنا في الحَـشَا | ونكْتُـمُ آهاتِــنا في الصـدورْ
ونـعْبُر للنــور ملءَ الخُـطَى | ونبذُلُ أرواحَـــنا في العـبورْ
ففي السَّفْح من أُحُدٍ مَضْجَعٌ | يَشِـعُّ على كل قلبٍ جَســورْ
فيغـمرُ بالنـــور أرواحَـــنا | لِـتشدُوَ باللحن خُضْرُ الطيورْ
وريـحُ صَبَــا نجْدِنـا لم تـزلْ | تُضَـمِّخُ أرواحَــنا بالعطـورْ
فتزرع تحت الضلــوع جَـوًى | ونيرانَ شوقٍ تكــادُ تَــفورْ
سنرجــعُ للـدار مهما تكُــنْ | صــروفُ الليالي وكَرُّ الدهورْ

سنمسحُ بالكــفِّ دمعَ النَّدَى ونَغْمُــرُ أزهارَنا بالحبــورْ

(لباكْ، الولايات المتحدة، 2004)

جانب الطُّور

أيها السَّاعـون في تِيـهِ المحُـالْ

يتلوَّى تحتكم سِـربُ الجِـمـالْ

والعيون النُّجل مَلأَى بالحَـــصَى

والشُّعور الغُبْرُ مَلأَى بالرِّمَـــالْ

***

قد بدَا من جانب الطُّورِ وَميـضْ

فإذا النور على نور يفـــــيـضْ

فانظروا سيناءَ قامت للـضُّـحى

ورمتْ ثوبَ الدَّيَاجِي في الحضيضْ

***

أيها السَّاعــون في أرض الخــطرْ

في انتجــاعٍ للمراعي والمـــــطرْ

أوَلاَ يتعبُكم طولُ السُّـــــرى؟

أوَلاَ يرهقُكم طــولُ الســـفرْ؟

***

انظُروا البدر سَرَى منه شعــاعْ

مستفيـضًا من ثَنِيَّات الــوداعْ

فإذا الدنيا تنـــــادي مرحــباً

وإذا النور على الكل مُــشاعْ

***

وانظروا الصحراء في ثوب بديعْ

طرَّزتْه بالنَّدَى أيدِي الربيـــعْ

واسمعوا العصفور يشدُو جذلاً

واسمعوا الراعي يُغنّي للقطـيعْ

***

هُوَ ذا الفجر من الشرق مُطِلْ

يرمُق الكون بطرف مكتحـلْ

أوَلم يكْفِ عذابًـا وكـرىً؟

أوَلم يأْنِ نزول المـــرتحـــلْ؟

***

أدبر الليل هـزيـلاً شائخًـــا

بين أسراب ذئـــابٍ ونبـــاحْ

وأتى الصبح فيا أهلاً بـــــهِ

طالما اشتقْتُ إلى وجه الصباحْ

(انواكشوط، موريتانيا، 1993)

رفرفة الفجر

سيأتي الفجر مُتَّشحاً بظلماءِ

يفجّرِ جلمدَ الصخرِ . .

ينابيعاً من الماءِ

فينبجسُ الربيع هناكَ من أحشاءِ رمضاءِ

لدى أُحُدٍ وفي بدْرِ

فنرتعُ في حدائقَ منه غَنَّاءِ

وواحاتٍ من النخلِ

وزيتونٍ وحِنَّاءِ

غدًا ينبلج الصبحُ

غداً يندمل الجرحُ

***

سينطلق الرعاة مع الربيع غداً

إلى أعماق صحرائي

بأذوادٍ من الإبْـلِ

وقطعانٍ من الشّاءِ

فتندفع الأناشيدُ

وترتفع الأغاريدُ

وما أحلى عناقَ الناي والثغرِ

غدًا ينبلج الصبحُ

غداً يندمل الجرحُ

***

فمن يَسْطِيعُ أن يمنع من رفرفة الفجرِ

بأجنحة من النورِ؟

ومن يسْطِيع أن ينهى عن الشدْو أو النقرِ

ملايين العصافير؟

ومن يسطيع أن يكتم أنفاساً من العطِر

على شفَة الأزاهيرِ؟

ومن يَسْطِيعُ أن يحجب ضوء الشمس والبدرِ؟

غدًا ينبلج الصبحُ

غَداً يندمل الجرحُ

(انواكشوط، موريتانيا، 1993)

يوسف وإخوته

نزَغ الشيطان بين الإخوةِ

فرماني إخوتي في الجبِّ . .

في أرضٍ عراءْ

صبغوا ثوبي بألوان الدماءْ

ثم عادوا في المساءْ . .

بنحيب وبكاءْ .

لم يصدّق والِدِي . .

أنني متُّ . . وما صدَّقتُ موتي

وتشبثتُ بأذيال الدلاءْ

***

باعني العيرُ ببخس الثمنِ

بدراهيمَ زهيدةْ

ونفاني من حنايا وطني

نحو أصقاع بعيدةْ. .

لم يصدّق والِدِي. .

أنني متُّ. .

وما صدَّقتُ موتي

ثم قطَّعتُ أحابيلَ البِغاءْ

***

طال عهدي ببلادي

وأبي عيناه من فرْط الأسى . .

أضْحتا دون اسوادِ . .

غير أني سوف أعْلُو عرشَ مصرِ

سوف أجني ثمراتٍ . .

من ضفاف النيل والبحر ومن أرض السوادِ

سوف أبقى مسلماً ما دام صبحٌ ومساءْ

(العيون، موريتانيا ، 1991)

شذى

شذاكِ بـالليل غامـــرْ يجولُ بينَ الديــاجــرْ
فينثُـر العطـــرَ شعــراً على الرُّبــى والمَعابــرْ
طـاف الفضـاءَ رشيقـــاً بينَ الطيـــور الكواسـرْ
ولاذَ بالقلـــب مِـــنّي يلوذُ بالوكْـر طائــــرْ
فيـا لَبَهجـــــةَ روحـي لحـنٌ نـــدِيٌّ مُسافـرْ
قـد استقـــرَّ بقلـــــبي جُنينـــةً من أزاهـــرْ
ففـاضَ قلـــبي بـحُـبّـِي على ضِفـاف المَحابـرْ
مـاذا أهمَّـــكِ؟ مـــاذا أهاج منكِ الخواطـرْ؟
لا تحـزني يـا فـــؤادي فِـداكِ روحـي المُغامِــرْ
نامـي بمرفَـــأ جفــني وسَـــافِري في النَّواظـــرْ
مـا ثـــارَ شعبُـــك إلا لكيْ تعِــزَّ الحرائـــرْ

إن لم تنامي قريـــــــراً   فـلا غَـفَـتْ عَيـــنُ شاعـــرْ

(عينتاب، تركيا، 2014)

قصيدة!

يا زهرةً من سَوْسنٍ غَـــــضِّ   وقصيدةً تمشي على الأرضِ
لا تسْحقي قـلبي بلاذنــبٍ   وتُحطّمي بعضي على بعـضي
ما هكذا أمَّـلتُ فيكِ، ومــا   خِلتُ الغرام إلى الرّدى يُفضي
كيف التخلّي عن هواكِ؟ وهـلْ   يسْلُو فؤادي عنه أو يُغْضـي؟
تمضي الحيـــاة سَحابةً، أمّـــا   حُبّي فما هو بالذي يَمْـــضي
أبداً يطاردني، فيلحقُنـــــي   أبداً، ويقْضِي فِـيَّ ما يقْـضي
يا زهرتــــي لا تقتلي أمَــلي   وتُقـــابِلي نجوايَ بالرفْــــضِ
إن تحجُبـي عنّي حديثَك والسِّـــــحرَ البهيجَ بثغرِكِ الفِـــضّي
وضياءَ مَبْسَمــه.. فما أبْغِي   عيشاً بهذا الكوكب الأرضِي

(العيون، موريتانيا، 1990)

ظِلال

يا دوحةً تفيَّأتْ ... روحي ضُحىً ظلالَها
وروضةً تنعَّمتْ ... مشاعري خلالَها
ووردةً تكحَّلتْ ... نواظري جمالَها
وغيمةً تصبُّ في ... جوانحي زُلالَها
ونجمةً أرقُبُها ... وأبتغي إطلالَها
وأختشي هجرانها ... وأرتجي وِصالَها
وأشتهي حديثها ... وقيلَها وقالَها
إذا رأيْتُكِ انْتشتْ ... رُوحي وغنَّتْ حالَها
أوحى لها جمالُكِ ... الساحرُ ما أوحى لها
فراعَها وقْعُ اللقاء ... بغتةً وهالَها
وابتسمتْ لها الحياة ... أنْبتتْ آمالَها

وإن هجرتِ زُلزِلتْ من الهوى زلزالها
واشتعلتْ نارُ الجوى فقطّعتْ أوصالَها

يا بهجة الدنيا بِخاطري ويا أهوالَها
رحَمى بروح فاق حبها لكِ احتمالَها
فحالُها إن لم تكوني ترحمي يُرثَى لها

(العيون، موريتانيا، 1991)

ذكريات

ذكرياتُ "العيونْ" تستفزُّ الفؤادْ
وتُثير الشجونْ رغم كل البِعادْ

***

إن طيفَ الحبيبْ في فؤادي الشَّجِي
حاضرٌ لا يغيبْ غائبٌ لا يَجِي

***

فهناك انقضتْ معَهُ لحظاتْ
لحظاتٌ مضتْ هُنَّ لُبُّ الحياة

***

قد هجرتُ المُنَى والهوَى والشبابْ
ورحلتُ أنَا نحو أرضٍ يَبابْ

***

ودفنتُ الغرامْ بين تلك الصخورْ
فعليه السلامْ ما توالى الدُّهورْ

(انواكشوط، موريتانيا ، 1992)

شكوى

اغْفِري للقلب فالقلبُ سقيمُ	واسأليهِ فهْوَ بالأمر عليمُ
سابحٌ بينَ ضُلوعٍ في دَمٍ	ودُموع قد تغَشَّاهُ وُجومُ
لا ينام الليلَ من فرْط الجوَى	ونديمِ الحُزن، يَا بئسَ النديمُ
يا ملاذي مِن أسَى رُوحي ومِن	زفرات الشوق والشوق أليمُ
إنما قلبيَ لحْمٌ ودمٌ	فارحمي شكواهُ فالحُبُّ رحيمُ
حُبُّنا باقٍ عميقاً أبَداً	ما تَغَنَّى الطيرُ أو هَبَّ النَّسيمُ
لا تقولي رَحَلتْ أَيَّامُهُ	حُبُّنا اليومَ جديدٌ وقديمُ
حُبُّنا كان عظيماً دائماً	وسيبقى ذلك الحُبُّ العظيمُ

(انواكشوط، موريتانيا، 1995)

أشواقٌ قدسيةٌ

القدس يا أنشودة المساءِ

وسُلَّم السماءِ

قلوبنا تهيم في الظلماءِ

تطلب رشْفَ ماءِ

وبيتنا مهجورُ

***

والمسجد المعمور بالضياءِ . .

يلفُّه الديجورُ

وفي ظلال القبة الخضراءِ

تنبجسُ المياهُ . .

تعشوشبُ الصخورُ

***

يا قدس مذ آذنتِ بالرحيلِ

أحملُ في لفائف الضلوعِ . .

أشلاءَ قلبٍ خافقِ الأشلاءِ

يفيض بالدماءِ

أذوب في جداول الدموعِ

فلترحمي بكائي

***

يا قدس بعد هجرنا الطويلِ

هل نلتقي في غابة الزيتونِ

في دربها الظليلِ؟

ونستقِي من حبّنا القديمِ

كؤوسَ سلسبيلِ؟

***

يا قدس طال بيننا الفراقُ

وامتدَّت الآفاقُ

واشتدَّت الأشواقُ

فهل إلى لقياكِ من سبيل؟

(العيون، موريتانيا، 1991)

القدس والإعصار

القدسُ والإعصارُ والغروبُ

يشرَبُ مِن دمٍ ومِن أحزانِ

يقتاتُ من لحم بَني الإنسانِ

***

والتينُ والزيتونُ . .

تلفَّعَا أرْديةَ اصْفرارِ

والليل يدْلهمُّ باكفهرارِ

وضاع في بحر الدُّجى عنواني

***

وقبَّة الصخرة في إصرارِ

تُشرقُ في دُجُنَّة الظلامِ

تشُدُّ قبضتين من فَخَارِ

تشقُّ صدرَ الليل بالأذانِ

***

يا قدسُ هل سيرحل الإعصارُ؟

وينتهي الهبوبُ؟

وينزوي في الأُفُق الغروبُ؟

ويختفي عن أعين الزمانِ

في التيه.. في ذاكرة النسيانِ؟

***

يا قدسُ قد طالتْ بنا الكروبُ

فمزِّقي الإعصارَا

وارْمِي بلجَّة الدُّجى أحجارَا

تُحوِّلُ التَّيَّارَا

ما عدتُ أستطيع الانتظارَا

***

القدس والإعصارُ والسكونُ

والليل في دروبه نُغنّي

والموت من خلاله نكونُ

(العيون، موريتانيا، 1990)

ياسين

أهْوَ فجــرٌ أَطَلَّ منه الجبيــنُ أهْوَ حُلْمٌ نعيشُه أم يقيــنُ ؟

كمْ وقفْنا على الديار نُدَارِي أَلَـمَ الشوق قد بَرَانَا الحنينُ

ذكرياتٌ لنا بِبــيسانَ والقُـــدْسِ وشوقٌ تقاذفتْــهُ السّنيــنُ

وأهالٍ لنا بيَافَا وحَيْـفَـــا هزّنا نحوَهم حنينٌ دفيــنُ

قد أمضَّ الحنينُ يا قلبُ لكنْ حان وقتُ اللّقَا فذَا ياسينُ

شامخَ الرأس جاءَ وهْوَ قَعيدٌ وطليقَ اليدينِ وهْوَ سجيــنُ

يَبذر الفجرَ في دروب الليالي يبذُلُ النورَ والزمانُ ضَنيــنُ

وجْنَةُ القدس قد أنارتْ و"عزُّ الـدّيـنِ" قد عَزَّ في خُطاهُ الدينُ

(صنعاء، اليمن، 1998)

حَجَري

حجَري أيا حُبّي

يا مبتغَى قلبي

أنتَ النَّجِيُّ لمهجتي الحَيْرَى

أنت الضياءُ يلوحُ في الفجرِ

والسيفُ في الحربِ

***

فإليَّ يا حجَري الحبيبْ

فلَسَوف أسقيكَ الدماءْ

وحليبَ أمّي..

ودموعَ أمّي..

وعصارةَ الليمون والعِنَبِ الرطيبْ

***

أرميكَ يا حجَري المضيءْ

عَـلِي أفجّرُ ثغرةً. .

في حَائط الليل البطيءْ

فلقد سئمتُ من الحياةْ

واللهو واللعب البريءْ

***

أفديكَ يا حجَري

فلأنتَ أنتَ تُخُطِّ لي قدَري

من بعدما رحلَ البُداةْ

وتبلَّدَ الفرسانُ في الحَضَرِ

(الجريف، موريتانيا، 1991)

الشهيد

يئنُّ إن أَنَّتِ الأيتام من حَـزَنٍ فهمُّه أن يداري عنهم الحَـزَنا

ويستعير عيون الثاكلات فإنْ بكتْ جرى الدمعُ من أجْفانه سَخِنا

يطارد الموتَ بحثًا في مَظِنَّته يَغْشَى مَواردَه إن أدبرَ الجُبَنَا

يجودُ بالنفس إن ضنَّ الجواد، وإنْ خارتْ عزائمُ أهل العزم قال: "أنا"

يسترخصُ الروح في ذات الإله، وفي ذات الإله يعافُ الأهل والوطنا

مُولَّهٌ بِلِحَاظِ الحُور مُفْتَتِنٌ ولا تراهُ بغير الحُور مُفْتَتِنا

باع النفيسَ وباع النفسَ محتسباً لنفسه في سبيل الله مُمْتهِنا

لا يملكُ الناس في أمثاله ثمناً لكن ربَّ البَرايَا يملك الثمنا

(سانتا كلارا، الولايات المتحدة، 2004)

الصقر الجريح

رُويدَك لا تشْكُ وقْعَ الجراحْ ... إذا الصقر أمسى مَهيضَ الجناحْ

فللصقر هبَّاتُه في الضحَى ... وللصقر أشواقُه في الرَّواحْ

يصارع بالعزم لمْعَ البروقْ ... وقصفَ الرعود وعصفَ الرياحْ

ويستعذِب المكثَ فوق الذُّرَى ... ولا يرتضِي العيش بين البِطاحْ

أبيٌّ عن الذُّلَ مهما يكنْ ... مَهيضَ الجناح عديمَ السلاحْ

صبورٌ على عاديات العِدا ... فخورٌ بما حازَهُ من نجاحْ

يقاوم ظلم الليالي لنا ... ويدفع عن وَكْرنا المستباحْ

هو النور في بحر ظلمائنا ... يبشّرنا بقدوم الصباحْ

(لباك، الولايات المتحدة، 2004)

الليل

يا أيها الليل المضرَّجُ بالدماءْ

صدري تحطَّم تحت صدرك باهتراءْ

وتكسَّرتْ منّي الضلوعْ

يا أيها الليل المخضَّب بالدموعْ

هل من ضياءْ؟

***

إني أرى أشباحَ جندٍ بين أغصان اللهبْ

تتلألأُ الأنوارُ في وجَنَاتهم

ما أدبروا . .

ما غادَروا مع مَن ذهبْ

إني أراهم يُـقْبلونْ . .

بين الصواعق والزوابع والحطبْ

***

يا أيها الفجر الوَدودْ

أقبِلْ بنُور واخْضرارٍ وارتواءْ

أقبِلْ بأنفاس الورودْ

واسكُبْ على تلك اللحودْ . .

أقداحَ ماءْ

كي يملأ النورُ الفضاءْ

كي يَنعمَ الشهداء في دار الخلودْ

(العيون، موريتانيا، 1991)

الصباح المُطلّ

دَعِ النعاس وصَلِّ ... لربِّك المتجلِّي
وانضَحْ مُحيَّاك ماءً ... يغزو الكرى فيُولِّي
ضاع الزمان بنومٍ ... فانهضْ لربٍّ أجَلِّ
والهَجْ بتسبيحِ فِكرٍ ... ونَجْوة وتمَلِّي
وانظرْ خيوطَ ضِياءٍ ... عبْرَ الدُّجى المضْمحِلِّ
هذا الصباح مُغيرٌ ... وذاكَ ليلٌ مُولِّ
روضُ الأخوَّة نادى ... فانعمْ بماءٍ وظِلِّ
واقطفْ ثماراً لِذاذاً ... من دَوْحِه المتدلِّي

أخي زحوفُ الأعادي ... حلَّت بقلب المحَلِّ
وموكب النور يَحْدُو ... جُنْدَ الصباح المُطلِّ

فانفرْ إليـه خفيفـــــاً   على الجواد المُـجَـلِّي
لئـن تخـلَّى أُنـــاسٌ   مـا أنـتَ بالمتخـــلِّي

(انواكشوط، موريتانيا، 1994)

اسطنبول

أنتِ أرضُ الجَمال أرضُ الرجالِ ... حدّثيني عن العهود الخَوالي

حدثيني فالليل طال وغشّى ... بدياجيره جبينَ الهِلالِ

حدثيني فالقلب يرقص شوقًا ... لأقاصيصِك اللّذاذِ الطّوالِ

عبَقُ المجد في ترابك عطرٌ ... عن يمينٍ نثَرْتِهِ وشِمالِ

والقِبابُ التي كَهَالاَتِ بَدْرٍ ... سابحاتٌ على أديم الليالي

والمناراتُ صادحاتٌ بلحْنٍ ... قُدُسيّ مضمَّخٍ بالجَلالِ

فتُداوي الجراحَ في كل رُوح ... وتُقِلُّ الأرواح نحو الأعالي

وكأنّي بالفاتح الشهْمِ نادَى ... في حشود الآسَاد والأشْبالِ

حملَ الوعدَ في يديه وفي جَنْـ ... ـبيْه نفسٌ توّاقةٌ للمَعالي

فلَنِعْمَ الأميرُ ذاكَ ونعم الْـ ... ـجيش جيشٌ يقودُهُ للنّزال

(إسطنبول، تركيا، 2010)

صنعاء

أحببتُ صنعاءَ ملءَ القلب فانبجستْ ... روحي بنبعٍ من الأشواق مندفقِ

أحببتُ فيها ضياء الفجر حين يُرى ... ينسابُ بين ذراعيْها على نسَقِ

أحببتُ فيها رذاذ الغيث حين يُرى ... لَئَالِئاً عَلِقتْ بالصدر والعُنقِ

أحببتُ فيها جبالاً في السماء عَلَتْ ... تَرْوِي شموخ اليمانيّينَ للأفُقِ

أنَّى اتجهتُ أراها في مخيّلتي ... طيفاً يلازم في حلِي ومنطلقي

أنَّى اتجهتُ يظل القلب في حَزَنٍ ... مِن هَجْرها وتظلَ الروح في قلَقِ

ريَّاكِ صنعاءُ لا رَيَّا يشاكلهُ ... محمَّلٌ بشَذَى تاريخكِ العَبِقِ

سكبتُ روحي على خدَّيَّ حين غدَا ... للغرب مُتَّجَهٌ والقلب فيكِ بَقِي

(واشنطن، الولايات المتحدة، 1999)

سرايِيفو

ما الذي يُجدي النحيبْ وخيالاتُ الأديبْ؟

يا سرايفو اعتذاراً إن تَغَشَّاكِ اللهيبْ

وأظلَّتْكِ المنايا وتحدَّاكِ المَغيبْ

ثم لاذتْ أمَّة الإسلام بالصمت المُريبْ

فاسألي يافَا وحيفَا واسألي القدس السليبْ

واسألي بغدادَ عن ذا واسمعي كيف تُجيبْ

يا سرايفو احتمالاً إن قسَى الدهر العصيبْ

سيزول الحزنُ يوماً عن محيَّاكِ الكئيبْ

فغداً ينطلق الفجرُ إلى الكون الرحيبْ

ويصيح الديكُ شدواً ويُغنّي العندليبْ

إنه الليلُ تولَّى إنه الصبحُ قريبْ

(الجريف، موريتانيا، 1993)

فَريدٌ وفَريدةٌ

الشّعرُ غَنَّى نشيدَهْ خفيفَهُ ومَديدَهْ
هذا فريدُ زمانٍ نَزُفُّهُ لِفَريدَهْ
من بعد طولِ انتظارٍ مِنَّا سنينَ عديدَهْ
طال التَّردُّدُ منهُ كانت خُطاهُ وئيدَهْ
حتَّى سئِمْنا جميعاً تهديدَهُ ووَعيدَهْ
واليومَ ها هو يخطُو عَبْر الدروب السَّديدَهْ
إني إذنْ لسعيدٌ وذِي الجموعُ سعيدَهْ
وذِي التهانئُ تْرى وذَا خِتامُ القصيدَهْ*

(انواكشوط، موريتانيا 1995)

* تهنئة للصديق الدكتور محمد محمود سيِّدي بزفافه.

محمد المختار الشنقيطي

سندفُن آلامَنا في الحَشَا ونَكْتمُ آهاتِنا في الصدورْ
ونعْبرُ للنورِ ملءَ الخُطى ونبذُلُ أرواحَنا في العبورْ

هذه جراحُ روحي بين يديك، عسى أن تجد فيها مرآةً لروحك، أو نافذةً على شغاف قلبك. فعجائبُ القلب لا تنقضي، وجراح الروح نوافذُ للنور، كما قال جلال الدين الرومي:
"إن الجرح هو النافذة التي يدخل منها النور إليك."

ISBN 978-605-74686-6-6
9786057468666

وسم للنشر والتوزيع
إسطنبول، تركيا
+90 551 163 82 25
wasm.bookstore@gmail.com